مكية

ترتيبها ١١

# سورة هود

آياتها ١٢٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

الحروف المقطعة: الله أعلم بمراده بها - سبحانه - وهذا القرآن الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ أُحكِمت معانيه، وفصِّلت ألفاظه، فسلمت الآيات من الخلل، وعُصِمت الجمل من العِلل، فهي محكمة بأصول الأحكام، مفصَّلة بفروع الحلال والحرام، من عند الله الحكيم في شرعه وصنعه، الخبير بمصائر الأمور وعواقب الأشياء.

(٢) ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾

أنزل القرآن وأحكم وفصِّل من أجل أن لا تعبدوا إلا الله وحده لا شريك له وهو التوحيد الخالص، وإن الرسول ﷺ نذير، ينذر الكفار العقاب، وبشير يبشِّر المؤمنين بالثواب.

(٣) ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ﴾

واطلبوا من ربكم الغفران لذنوبكم، وعودوا إليه تائبين نادمين يحييكم حياةً طيبة مع عافية الأبدان، وأمن الأوطان، ورضا الرحمن إلى أن تنقضي أعماركم في أحسن حال، ويعطي صاحبه كل فضل من علم نافع وعمل صالح أجره بقدر عمله، ويتفضل على من يشاء ببره على عباده، وإن تعرضوا عن الهداية فإني أخاف أن يصيبكم عذاب يوم شديد، وهو يوم القيامة، وهذا تهديد ووعيد لمن صد عن سبيل الله وأعرض عن دينه.

(٤) ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾

إلى الله تعودون يوم العرض، الأكبر فاتقوه بطاعته واتباع رسوله ﷺ، وهو - سبحانه - قادرٌ على إحيائكم وإماتتكم وبعثكم وحسابكم لا يعجزه شيء.

(٥) ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

ألا إن هؤلاء الكفار يضمرون الكفر في صدورهم ويحسبون أنه يخفى على الله ما أضمروا، ويغيب عنه ما أسروا، أفلا يعلمون أنهم حينما يسترون أجسامهم بثيابهم فإن الله لا يخفى عليه منهم شيء، علم سرَّهم وعلانيتهم، وما ظهر وما بطن من أمرهم، إنه عليمٌ بما تكنُّه الصدور وتخفيه من نيات وأسرار؛ لأنه يعلم السر وأخفى، فهو أولى أن يُخشى ويُتقى وحده.

(٦) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾

رزق جميع ما يدبُّ على وجه الأرض تكفَّل الله به، فهو الرزّاق وحده لكل مخلوق، ويعلم محل استقرار هذا المخلوق في حياته وبعد موته، ويعلم المكان الذي يموت فيه، كل هذا في كتاب واضح مكتوب، وهو الكتاب السابق في القضاء، والقضاء الذي فرغ منه، وفيه تفصيل كل شيء من الخلق والرزق والحياة والموت.

(٧) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾

والله وحده الذي خلق السموات والأرض وما فيهن في مدة ستة أيام، وقبل ذلك خلق عرشه على الماء، ليمتحنكم أيكم أحسن طاعةً وعبادة له من حيث إخلاص العمل لله ومتابعة رسول الله ﷺ، ولئن قلت - أيها النبي- للكفار: إنكم سوف تُبعثون بعد موتكم وتعودون إلى ربكم، فإنهم سوف يقولون: ما هذا القرآن الذي تتلوه إلا سحرٌ واضح ظاهر؛ كذبًا منهم وزورًا وصدودًا وفجورًا.

(٨) ﴿ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

ولئن أجَّل الله العذاب عن الكفار مدة معلومة لقالوا -استهزاءً وسخرية-: لماذا لا يقع هذا العذاب الذي تهددنا وتوعدنا به محمد وما سبب تأخيره؟ ألا يوم يحل بهم العذاب فلن يصرفه عنهم صارف، ولا يرده راد، وسوف يحيط بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون به ويستبطئونه.

(٩) ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴾

ومن عادة الإنسان أن الله إذا منحه نعمةً من مالٍ وثروةٍ وجاه وولد وصحة وأمن ثم سلبها منه إن الإنسان لشديد اليأس من رحمة الله، يجحد نعمه السابقة، فهو قليلُ الشكر ينسى الجميل ويستبطئ الفرج.

(١٠) ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴾

وإذا أعطى الله الإنسان نعمة في دنياه من رزق واسع، وعيش رغيد وصحة وقوة بعد فقر وضيق ومرض وضعف، ليقولن الإنسان ذهب ذاك الشقاء فلن يعود، وزال الضيق فلن يرجع، فهو بطر بالنعم، فخور متعالٍ بها على العباد، يفرح قلبه خيلاء، ويفخر لسانه استعلاء، فرح في نفسه، فخور على غيره.

(١١) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾

غير أن الذين صبروا على الشدة وعلى صولة النعمة إيمانًا واحتسابًا وسارعوا إلى عمل الخير طلبًا للثواب، فهؤلاء يغفر الله لهم ما فعلوه من الذنوب، ويثيبهم أحسن الثواب على ما فعلوه من الطاعات، فذنبهم مغفور وسعيهم مشكور.

(١٢) ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾

فلعلك - أيها الرسول - لما تلقاه من الكفار وتجده من الفجار من الكيد والأذى والصد والمحاربة تاركٌ شيئًا مما أنزله الله عليك من القرآن وأمرك بتبليغه، وتضيق ذرعًا من نشره، خوفًا من تعنُّت الكفر وأسئلتهم واعتراضهم مثل أن يطلبوا منك: أن ينزل عليك مالاً كثيرًا، أو يأتي معك ملك من السماء يشهد لك بالرسالة، فما عليك أنت إلا البلاغ المبين فلا تكتم شيئًا، والله سوف يتولى حساب الجميع؛ لأنه متوكل بكل شيء، ومن ذلك ثواب الأبرار وعقاب الفجَّار، وإنزال الآيات وإظهار المعجزات، وليس لك إلا الإنذار بما عندك من وحي.

(١٣) ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

يقول كفار مكة: إن محمداً ﷺ افترى القرآن وليس من عند الله تعالى، فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: إن كان الأمر كما تزعمون فتعالوا أنتم بعشرِ سورٍ مثل القرآن مفتريات، واطلبوا من كل أحد قدرتم عليه أن يعاونكم على الإتيان بهذه السور العشر إن كنتم صادقين في دعواكم، وهذا غاية التحدّي، فسبحان من أعلى قدر كتابه عن معارضة البشر، وأفحم به الجن والإنس.

﴿١٤﴾ ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

فإن لم يستجب لك الكفار - أيها النبي - ويؤمنوا بما جئت به ويسلِّموا لك ومن آمن معك فاعلموا أن هذا القرآن الحكيم إنما نزل بعلم الله وليس من قول البشر، واعلموا أن لا إله يُعبد بحق إلا الله، فهل أنتم - أيها الكفار الشاكون بعد نزول هذه البراهين - مذعنون ومنقادون لله ولرسوله.

﴿١٥﴾ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾

من كان يريد بعمله وسعيه الحياة الدنيا للمفاخرة والحصول على متعها الزائلة ولذائذها الفانية من مال وجاه ومنصب أعطيناهم ثمار أعمالهم التي عملوا لها وافية، وقد يحصلون على ما أرادوا بلا نقص، فتلبى مطالبهم في الدنيا ابتلاءً واستدراجًا.

﴿١٦﴾ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وهؤلاء ليس لهم ثواب عند الله ولا كرامة، وإنما يستحقون النار في الآخرة؛ لأنهم عملوا للدنيا ونسوا لقاء ربهم وأرادوا بسعيهم غير الله، وذهب عنهم نفع ما عملوا لما فيه من الرياء وتقديم الفاني على الباقي والرضا بالدنيا حظًا ونصيبًا وإغفال ما عند الله من ثواب.

﴿١٧﴾ ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أفمن كان على بصيرة ويقين من ربه فيما يعتقده من الإيمان ويدعو إليه من الخير وينهى عنه من المنكر، ويتلو هذه البيِّنة ويصدقها ويعضدها برهان آخر وشاهد ثان وهو جبريل أو محمد - عليهما السلام - ويؤيد ذلك شاهد ثالث وهو ما ذكر في التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام هدايةً ورشدًا لمن اتبعه، ودليلاً واضحًا لمن اهتدى به، ورحمة لمن اعتصم به، وهؤلاء الذين على بينة من أمرهم يُصدِّقون بالقرآن ويؤمنون بالرسول ﷺ وما أنزله الله من كتبه على رسله، والذين كفروا بهذا القرآن واجتمعوا ضد الرسول ﷺ وتعاقدوا على محاربته فهؤلاء جزاؤهم نار جهنم، هي مصيرهم ومأواهم، فلا تكن في شك من أمر هذا الدين والقرآن، فإنه حقٌ مبين، بالأدلة والبراهين، من عند الله وليس من عند البشر، كما زعم من كفر، وهذا الدين هو الحق الثابت، واليقين القاطع للشبه من عند الله، ولكن أكثر الناس لا يصدقون بالرسالة والرسول ولا يؤمنون بالحق.

﴿١٨﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لا أحد أشد ظلمًا ممن اختلق الكذب على الله، وسوف يوقفون للحساب عند الله؛ ليجازيهم على سوء عملهم، ويقول الشهود من الملائكة والمرسلين وغيرهم: هؤلاء هم المفترون على الله، الكاذبون في دعواهم، قد طردهم الله من رحمته، ومنعهم من جنَّته، وحل عليهم غضبه؛ لأنهم ظالمون لأنفسهم بالشرك، كاذبون في أقوالهم وأعمالهم.

﴿١٩﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

الذين يمنعون العباد من الهداية، ويعترضون الخلق في طريقهم الموصلة إلى الله، ويريدون أن تكون الطريق ملتوية وفق أهوائهم وما أملَتْه شياطينهم فيتركون الصراط المستقيم، ويسلكون سبيل أهل الجحيم وهم مكذبون بلقاء الله، كافرون بالبعث والجزاء، فهم الظلمة الخاسرون المخلدون في النار.

(٢٠) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾

أولئك الكفار لم يكونوا يفوتون الله هربًا، ولا يعجزونه طلبًا، وليس لهم أنصار يحمونهم من عقاب الله، يضاعف لهم العذاب في نار جهنم؛ لشدة جُرمِهِم وعِظَم ظلمهم؛ لأنهم في الدنيا ما كانوا يستطيعون سماع الحق الذي أُنزل على الرسول ﷺ سماع استجابة وقبول، فقد منعهم الكبر من الانقياد والإذعان، وما كانوا يبصرون آيات الله في الكون بصر معتبر متعظ؛ لأن الكفر ران على عيون بصائرهم.

(٢١) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾

أولئك الكفار هم الذين خسروا أنفسهم بالعذاب في النار، مع غضب الجبار، وذهب عنهم ما اختلقوه من عبادة أوثان وافتراء بالشرك على الرحمن، وادعاؤهم أن آلهتهم تشفع لهم وتدفع عنهم العذاب والهوان.

(٢٢) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴾

لا شك ولا ريب أنهم أخسر الناس صفقةً في الآخرة؛ لأنهم استبدلوا النعيم المقيم بعذاب الجحيم، والدرجات بالدركات، والرضوان بالهوان.

(٢٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

إن من آمن بالله وعمل بما يحبه ويرضاه من الأقوال والأفعال مع الخضوع والخشية لله، والعمل بأوامره واجتناب نواهيه هم أهل الجنة خالدون فيها، لا يخرجون منها ولا يموتون، حسن لهم المقام في دار السلام مع الأمن والإنعام.

(٢٤) ﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

شبَّه الله أهل الكفر وأهل الإيمان مثل الأعمى الذي لا يرى، والأصم الذي لا يسمع، فالكافر لا يبصر الصواب فيتبعه، ولا يسمع الهدى فينتفع به، ومثل المؤمن مثل البصير الذي أبصر طريق الهداية فسلكه، وسمع داعي الله فآمن به، فهذان الفريقان لا يستويان، فلماذا لا يتدبرون الحجج والأدلة، ويعتبرون بالبراهين والأمثلة؟!.

(٢٥) ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾

ولقد أرسل الله نوحًا ﷺ إلى قومه فقال لهم: إني نذير لكم من الله، أحذِّركم عذاب الله إن كفرتم به، وأبيِّن لكم ما أرسلني الله به من آيات وحجج.

(٢٦) ﴿ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴾

وأدعوكم أن لا تعبدوا إلا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، إني أخشى عليكم إذا لم توحِّدوا الله أن يعذبكم عذابًا أليمًا موجعًا شديدًا.

(٢٧) ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴾

فقال أعيان الكفار من قوم نوح ﷺ: إنك يا نوح بشرٌ مثلنا لا فضل لك علينا، ولست ملكًا، فلماذا تختص بالرسالة من دوننا؟ ونحن نرى أتباعك من السفلة والضعفاء لا من الأشراف والأغنياء، من غير تفكر ولا روية ولا تأمل في القضية، وليس لكم علينا مزية من مال ولا جاه ولا سلطان لـمّا اعتنقتم هذا الدين الجديد، بل نعتقد كذبكم في دعواكم وافترائكم فيما جئتم به.

٢٨ ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾

قال نوح: يا قومي، أرأيتم إن كنتُ أنا على يقين من أمري وعلى طريق مستقيم، ومعي دليل ظاهر وبرهان ساطع على ما أدعو إليه، ورحمني ربيّ بالرسالة الربانية، وهداني إلى العبودية الحقة، فخفيت عليكم الحجج وضللتم عن هذه الأدلة لاتباعكم الهوى، وإعراضكم عن الهدى، فلا يستقيم أن نجبركم على الهداية ونكرهكم على الإيمان دون اقتناع منكم واستجابة من أنفسكم، وإنما نقيم عليكم الحجة، ونوضِّح لكم المحجة، ونكل أمركم إلى الله تعالى.

٢٩ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾

يقول نوح ﷺ لقومه: يا قوم، لا أطلبُ منكم أجرًا على دعوتي لكم للإيمان بالله وتوحيده، فالله وحده هو الذي يأجرني على نصحي لكم، فلم أُحمِّلكم عبئًا ولم أسألكم مالاً، ولستُ بطارد من مجلسي من آمن بي بحجة أنهم ضعفاء ليسوا أشرافًا أغنياء، فسوف يعودون إلى ربهم والفضل عنده بالتقوى، وسوف يتولى أمرهم، غير أنكم جهلاء بأسباب التفضيل وبما يصلحكم، ومن جهلكم عدم اتباع الحق والإعراض عن الهدى.

٣٠ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

ويا قوم من يمنعني من عذاب الله إذا طردت من مجلسي أولياء الله، فما لكم لا تفكِّرون في صحة ما أقول لكم وتتدبرون الأصلح لكم، فتفعلونه.

٣١ ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ولا أدّعي أني أملك التصرف في خزائن الله، فأعطي من أشاء وأمنع من أشاء، فأرزاق العباد وخزائن السموات والأرض بيد الله - تعالى - وأنا لا أعلم الغيب فلا يعلم غيب السموات والأرض إلا الله وحده، وأنا لستُ مَلَكًا من ملائكة السموات، وأنا عبد رسول أكرمني الله بالنبوة، ولا أقول للبائسين الضعفاء الذين تحتقرونهم: لن يعطيهم الله أجرًا على أعمالهم الصالحة إذا قصدوا بها وجه الله، فالله وحده يعلم سرَّهم وعلانيتهم، والثواب في الآخرة ليس على حسب مكانة العبد في الدنيا ولا ادعيتُ على الله ما لم أعلم، ولا كنتُ ظالمًا لنفسي بالتَّقول على الله، وظالمًا لغيري بالحكم الجائر مني.

٣٢ ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال قوم نوح لنوح: قد خاصمتنا كثيرًا وحاورتنا طويلاً، فاترك الجدل وأتنا بما تتوعدنا به من العذاب!! وهو تحدٍّ منهم له؛ لأنهم مكذبون بالعذاب، مستبعدون لوقوعه؛ ولذلك قالوا: إن كنت من الصادقين؛ يعني على فرض صدقك جدلاً مع العلم أنهم لا يصدقونه.

٣٣ ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾

قال نوح لقومه: العذاب يأتي به الله وحده، فهو المقدِّر والحاكم بين العباد، وأنا لا أملكُ تقديم عذاب ولا تأخيره، وإنما أنا نذير لكم من عذاب الله، وإذا أراد الله عذابكم فلا تفوتونه ولن تعجزوه، وأين يهرب العبد الهزيل من الرب الجليل؟!

٣٤ ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

لا ينفعكم نصحي ولو اجتهدتُ في النصيحة إذا قدَّر الله عدم هدايتكم، فأنا لو فعلتُ السبب في إرشادكم والله ما كَتَبَ صلاحكم فلن تستجيبوا لي، فإذا أراد الله ضلالكم فلن أملك أنا هدايتكم؛ لأن الله هو ربكم المتصرف بأموركم، المدبِّر لأحوالكم، ومردُّكم في الآخرة إليه، يجازيكم على أعمالكم.

﴿٣٥﴾ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

يقول الكفار من قوم نوح: إن نوحًا افترى على الله هذا القول. فقل لهم يا نوح: إن كنتُ قد افتريتُ هذا القول على ربي فعليَّ وحدي تقع عقوبة هذا الفعل، وأنا مسؤول عند الله عنه، وإن كنتُ صادقًا فأنتم الكاذبون الخاسرون، وأبرأُ إلى الله من عملكم وتكذيبكم.

﴿٣٦﴾ ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

وأوحى الله - تعالى - إلى نوحٍ أن الله كتب على قومك الكفر فلن يؤمن منهم أحد إلا من سبق له أن آمن من قبل، فلا تحزن عليهم، فليس عليك من ذنوبهم شيء، وقد بلَّغت رسالة الله، ولا تضق ذرعًا بعملهم السيئ، فحسابهم على الله.

﴿٣٧﴾ ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

واصنع يا نوح السفينة بتأييد الله ورعايته وحفظه ومرأى من الله واطلاع، ولا تشفع في الظالمين برفع عذاب أو تأخير عقاب، إن الله كتب عليهم الإغراق بالطوفان، وفي الآية إثبات صفة العين لله على وجه يليق به -عز وجل-.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

ويصنع السفينة لينجو بها من الطوفان، وكلما مرَّ عليه جماعة من أشراف قومه استهزؤوا به، قال لهم نوح: إن تستهزئوا منا لتكذيبكم وعد الله وما أخبرتُ به، فسوف نستهزئ بكم إذا جاء الطوفان وغرقتم كما تستهزئون بنا، وفيه فعل السبب مع التوكل.

﴿٣٩﴾ ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

فسوف يظهر لكم الحال إذا جاء عذاب من الله مهين لكم، ويقع بكم عذاب في النار دائم لا ينتهي؛ جزاء عملكم السيئ، وفيه الوثوق بوعد الله وأن العاقبة لأوليائه.

﴿٤٠﴾ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۖ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

حتى إذا وقع أمر الله، وحان هلاك القوم، وبلغ الأمر نهايته، والمقدور غايته، ونبع الماء من التنور الذي يُخبز فيه؛ إشارة إلى مجيء العذاب، أمر الله نوحًا أن احمل في السفينة من كل نوع من أنواع الحيوانات اثنين ذكرًا وأنثى، وخذ معك أهل بيتك في السفينة إلا من سبق فيه قضاء الله أن لا يؤمن كابنه وزوجته، وأركِبْ في السفينة معك كل المؤمنين بك، وما أطاع نوحًا إلا قليل مع اجتهاده في الدعوة وطول المدة وكثرة الأدلة.

﴿٤١﴾ ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وقال نوح لقومه: اركبوا معي في السفينة بسم الله بداية سيرها على الماء، وبسم الله عند انتهائها ورسوِّها متوكلين عليه، إن ربي يغفر ذنب من تاب، ويرحم من أناب، فلا يعذبه بعدما عاد واستجاب، وفيه التوكل في بدء الأمر ونهايته وحسن الظن بالله.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

والسفينة تسعى بنوح ومن معه في موجٍ يضطرب كهيئة الجبال في ارتفاعه، ونادى نوح ابنه - وكان معتزلاً في مكان بعيد عن أبيه والمؤمنين - فقال له: يا بني، تبْ وتعال اركب معنا في السفينة ولا تستمر على الكفر فتهلك غريقًا، وفيه أن هداية الدلالة لا تنفع إلا بهداية التوفيق.

﴿٤٣﴾ ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾

قال ابن نوح لأبيه: سأذهب إلى جبلٍ عالٍ أحتمي به من الغرق، فقال له نوح: لن ينجيك اليوم شيء مما قدّره الله من غرق وموت إلا من شاء الله رحمته ونجاته، وحال الموج العظيم بين الأب وابنه فكان الابن من الهالكين في الماء غريقًا، ولم تنفع القرابة مع اختلاف الدين.

﴿٤٤﴾ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وأمر الله الأرض بعد هلاك الكفار: أن تشرب ماءها فتجف، وأمر السماء أن تمسك المطر، ونقص الماء ونضب، وعاد لحاله قبل الطوفان، وقضى الله أمره بإهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين، ورست السفينة على جبل الجودي. وقيل: هلاكًا وسحقًا لمن ظلم بتجاوز حدود الله والكفر به وتكذيب رسوله.

﴿٤٥﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾

ودعا نوح ربه -عز وجل- فقال في دعائه: يا رب، إن ابني من أسرتي، وأنت وعدتني بنجاتهم فلتشمله رحمتك وتنجيه كما نجيتهم وأنت لا تخلف وعدك؛ فأتم بفضلك ما سبق الوعد به وأنت أحكم الحاكمين في قضائك وعدلك وشرعك، لا تتهم في القدر والاختيار والمكتوب.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾

فأخبر الله نوحًا أن ابنه الهالك ليس من أهله المؤمنين الناجين؛ لأنه خالفهم في الدين، وعمله يخالف عمل الصالحين، ونهى الله نوحًا أن يطلب منه أمرًا لا علم له به؛ لأن من سأل ما لا يحل له كان جاهلاً، والله يعظ نوحًا أن لا يكون منهم، وفي الآية أن الكافر لا حق له في حقوق القرابة؛ وتحريم سؤال الله ما لا يجوز، وهو من التعدي في الدعاء.

﴿٤٧﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

قال نوح: يا رب، ألتجئ إليك وأستجير بك أن أطلب منك شيئًا لا أعلمه ولا يحل لي أن أسأله، وإذا لم تغفر ذنبي وترحمني بترك مؤاخذتي أكن ممن خسر حظه، وطُرد من الرحمة وأدركه الهلاك، وفيه أن الأنبياء يخافون من آثار الذنوب لو لم يتغمدهم الله برحمته.

﴿٤٨﴾ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

فأمر الله نوحًا أن ينزل من السفينة إلى الأرض في أمن وسلام وبركة ورضا من الله عليه وعلى طوائف معه من أهل الإيمان، وهناك جماعات من الكفار سوف يمتعهم الله في حياتهم الدنيا كمتاع البهائم إلى نهاية أعمارهم، ثم يعذبهم في جهنم عذابًا شديدًا على كفرهم بالله - تعالى - وفيه أن الدنيا للبر والفاجر، ولا عبرة بتنعم الفجار فيها.

﴿٤٩﴾ ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۛ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

هذه الأخبار التي أوحاها الله إلى رسوله محمد ﷺ هي من أخبار الغيب الماضية، لم يأخذها الرسول ﷺ من الرواة، وإنما هي من عند الله؛ فهو لم يكن عنده علم بها قبل الوحي، وأيضًا العرب لم تصلهم هذه الأخبار في جاهليتهم، ثم أمر الله رسوله بالصبر على أذى الكفار ومصاعب الطريق، فإن العاقبة في نهاية الأمر من الحياة الطيبة والعز والنصر، ثم النعيم في الآخرة، لمن اتقى ربَّه وخاف مولاه وأطاع خالقه، وفيه أنه بالبر والصبر يُنال النصر والأجر، فالبر عمل الطاعات، والصبر ترك المخالفات.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (٥٠)

وأرسل الله إلى عادٍ النبي هودًا ﷺ، فقال لهم: يا قوم، اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، فليس لكم إله سواه، ولا معبود بحقٍ غيره، فأطيعوه مخلصين له الدين، فأنتم في شرككم هذا كاذبون. وفيه أن التوحيد أول ما يُدعى إليه وهو أصل الأصول.

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥١)

ويا قوم، لا أطلبُ منكم أجرةً وعوضًا على دعوتي لكم بتوحيد الله وإفراده بالعبادة، فأجر دعوتي وثوابي على ربي الذي أرسلني، فما لكم لا تفكرون في هذا فتميزون بين الحق والباطل؛ لأن من يدعو قومه إلى أمر ويلقى في ذلك صنوف الأذى بلا مصلحة منهم دليل على صدقه وتجرده، وفيه أن الداعية لا ينتظر من الناس ثوابًا على عمله، وعليه أن لا يأخذ عوضًا من أحد إلا من الله وحده.

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (٥٢)

ويا قوم، اسألوا الله أن يغفر ذنوبكم، ثم اهجروا الذنوب، واندموا على ما سلف من المعاصي، فإذا فعلتم ذلك وصحَّت منكم الإنابة أنزل الله عليكم الغيث المدرار؛ فتكثر الخيرات، ويعم الرخاء، وتنعمون برغد في العيش، ويزدكم قوةً إلى قوة بصحة الأجسام، وكثرة الذرية والأموال، وتتابع الأرزاق، ولا تعرضوا عن الاستجابة، ولا تُصِرّوا على الذنوب، وتستكبروا عن قبول الحق، وفي الآية: بركة الاستغفار والتوبة، وأنهما أصل كل خير في النفس والجسم والمال والولد.

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٣)

قال قوم هود: ما أتيتنا يا هود بدليل واضحٍ ولا برهان ساطع على صحة رسالتك، وصدق دعوتك، ولن نهجر آلهتنا من أجل قول لا نعلم صحته، وصدق صاحبه، ولن نصدِّقك أبدًا فيما تدَّعيه. انظر كيف يدَّعي المكابر خفاء الحجة الواضحة، ويتعلق بالشبهات عنادًا.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٥٤)

قولنا فيك: إنك مصاب بجنون أصابتك به آلهتنا!! انتقامًا منها؛ لأنك نهيتنا عن عبادتها، وهذا من أسخف الأقوال وأرذلها، فردَّ عليهم بقوله: أُشهِدُ الله ثم أُشهِدكم أنني بريء مما تشركون. فمن لوازم توحيد الله البراءة من الشرك به.

﴿مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ (٥٥)

أبرأُ من كل ندٍ وضد وشريك سوى الله تعالى، فاجتهدوا ما استطعتم في محاربتي، واستعينوا بمن شئتم من أنصاركم في إدخال الضرر عليَّ، ولا تؤخِّروا ذلك طرفة عين، وهذا غاية التوكل على الله الذي قام به هود ﷺ، فالداعية واثق من نصر الله، يتحدى خصومه بقوة الله، ولا يرهبهم؛ لأن الله معه.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦)

إني توكَّلتُ على الله ربي وربكم مالك الكون والمتصرف في كل ما فيه والمدبِّر له، فكل شيء بقضاء منه وقدر، فلن أجزع؛ لأنه لا يصيبني إلا ما كُتب لي، لا تدب على وجه الأرض دابة إلا وهي في ملك الله وتحت تصرفه وقهره مسخرة لسلطانه، وربي على صراط مستقيم، حكيم في خلقه وتدبيره، عدل في قضائه وتقديره، بصير في شرعه وحكمه، يجازي كلاً بعمله، للمحسن الثواب، وللمسيء العقاب، وفيه: فضل التوكل وتفويض الأمر إلى الله والالتجاء إليه في كل ملمَّة.

﴿٥٧﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾

فإن تعرضوا عن الإيمان بالله وحده، وتصدوا عن سبيله فقد أنذرتكم وأبلغتكم رسالة ربي إليكم من الأمر بتوحيده والنهي عن الشرك به - سبحانه - وقد قامت عليكم الحجة، وإذا كفرتم فسوف يأت الله بقوم يخلفونكم في أرضكم، ويؤمنون بالله مخلصين له الدين، ولا تضرون الله بكفركم شيئًا، فهو الغني عن كل أحد، إن ربي حافظ لكل شيء، سوف يحفظني من أذاكم، وفي الآية: هوان الخليقة على الله إذا كفروا به، وأن الإعراض عن الله أساس كل دمار في الأمم، وغنى الله عن البشر.

﴿٥٨﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

ولما جاء أمر الله بإهلاك قوم هود، نجى الله هودًا ومن آمن معه تفضلاً منه بقبول حسناتهم ورحمة بغفران سيئاتهم، ونجاهم الله من عذاب شديد فظيع، أنزله بمن كفر فأبادهم وأفناهم؛ لأن الإيمان بالله وعمل الصالحات عاصم من كل بلاء.

﴿٥٩﴾ ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

وتلك عاد قوم هود كفروا بآيات الله وعصوا رسله، وأطاعوا أمر كل طاغية متكبر لا يتبع الحق ولا ينقاد للدليل، وإنما حملهم على الردى الهوى وترك الهدى.

﴿٦٠﴾ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

وأتبعهم الله بعد أن أهلكهم لعنةً وطردًا من رحمته، وغضبًا دائمًا إلى يوم القيامة، ألا إن عادًا كفروا بالله وجحدوا بآياته وكذبوا رسوله، ألا أبعدهم الله وأهلكهم وأخزاهم بسبب التكذيب والعناد، والكبر والفساد، فلا يمحق الدول والشعوب إلا الإعراض عن علاّم الغيوب.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

وأرسل الله إلى قوم ثمود النبي صالحًا ﷺ أخاهم في النسب، فنصحهم بعبادة الله وحده وعدم الإشراك به؛ لأنه المستحق للعبادة دون سواه، فهو الذي ابتدأ خلقهم من تراب الأرض بخلق أبيهم آدم، وجعلهم يعمرون الأرض، ثم أمرهم بطلب المغفرة من الله وصدق التوبة إليه؛ لأن الله قريب لمن صدق في عبادته وأخلص في طاعته، قرب توفيق وحفظ ونصر، مجيبٌ له، إذا دعاه يُلَبِّي له ما سأل، فبالتوبة والاستغفار تدوم النعم من الواحد القهار على عباده الأبرار.

﴿٦٢﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

قالت أمة ثمود للنبي صالح: كنّا نأمل منك أن تكون سيدًا فينا محبوبًا مطاعًا، ولكن بعد ما قلت هذا القول الغريب المنكر من الدعوة إلى عبادة الله وحده فقد يئسنا منك، كيف تنكر علينا ما كان يعبده آباؤنا؟ فأنت بهذا تُسفِّه أحلامهم، ونحن نشك في دعوتك ونرتاب في رسالتك؛ لأنك لم تأتِ بأدلة واضحة، وحجج بيّنة. وهذا منهم مكابرة، وفيه: أن التقليد يعمي البصيرة ويحجب عن الحق، ويمنع من معرفة الصواب.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾

قال صالح لقومه: أخبروني يا قوم إن كنتُ على محجة واضحة، وعندي حجة بينة، وأنا على يقين مما أدعو إليه، والله أكرمني بالنبوة والحكمة، من ذا الذي يمنعني من عقاب الله إن خالفتُ أمره، فلم أبلِّغ رسالته وأنذركم عذابه، فأنا لو أطعتكم ما زادتني طاعتكم والقرب منكم إلا ضلالاً وبعدًا عن الخير، وهلاكًا في الآخرة، فبالبينة يُدرِك الإنسان الصواب، وبالرحمة ينجو من العذاب.

﴿٦٤﴾ ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

ويا قوم، هذه ناقة الله دليل على صدقي، وآية ظاهرة على صحة رسالتي، فاتركوها تأكل في أرض الله، فالله يرزقها لا أنتم، وهو الذي خلقها وحده، فلا تتعرضوا لها بسوء، فإذا فعلتم ذلك حلَّ بكم عذاب الله الذي لا يُطاق، وفيه التلطف بالمدعو وعرض الأدلة في المناظرة.

﴿٦٥﴾ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾

فكفر قوم صالح برسالته وعقروا الناقة، فوقعت بهم الواقعة، وقال لهم صالح: لكم أيام ثلاثة فقط تستمتعون فيها، وهذا وعدٌ صادق من الله لا كذب فيه، وسوف يقع لا محالة فيالشؤم المعصية ماذا جرَّت من الويلات.

﴿٦٦﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾

فلما حان هلاك ثمود أنجى الله صالحًا ومن معه من المؤمنين بلطف منه - سبحانه - وعناية ورعاية، ووقع الهلاك والخزي على قومه، إن الله - جل في علاه - قوي يغلب من غالبه، ويقصم من حاربه، عزيز لا يرام جنابه ولا يُخذل أولياؤه.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

وأهلك الله ثمود بالصيحة القوية المدمِّرة، فصاروا هامدين خامدين كورق الشجر اليابس، لا حياة فيهم، جزاءً على كفرهم وقتلهم الناقة وعنادهم، فما أقوى الخالق وما أضعف المخلوق.

﴿٦٨﴾ ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾

كأن ثمود بعد هلاكهم ما عاشوا في الدنيا ولا استمتعوا بها، لقد كفرت ثمود بآيات الله وكذبت الحجج الواضحة التي جاء بها صالح ﷺ، فهلاكًا لثمود ولعنة عليهم ما أفجرهم وأشقاهم، ذهبوا فلا دنيا ولا آخرة.

﴿٦٩﴾ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

ولقد جاءت الملائكة إبراهيم ﷺ يبشرونه بابنه إسحاق وبعده يعقوب؛ فحيوه بالسلام، فرد بمثلها وأحسن؛ فقام مسرعًا وأحضر لهم عجلاً سمينًا مشويًا حنيذًا ضيافةً لهم. وفيه البشرى بالخير، والفرح بالولد، والبدء بالسلام، ورد التحية، وإكرام الضيف.

﴿٧٠﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾

فلما شاهد إبراهيم الملائكة لا يمدون أيديهم للأكل من الطعام المقدم لهم أنكر هذه الحال وأضمر الخوف منهم، فقالت له الملائكة: لا تخف منا فنحن ملائكة مرسلون من الله إلى قوم لوط لنهلكهم. وفيه: عرض الأكل على الضيف، وأن الملائكة لا يأكلون الطعام، وطمأنة الخائف بكشف اللبس.

﴿٧١﴾ ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾

وسارة زوجة إبراهيم خلف الستر قائمة تسمع الكلام، فضحكت عجبًا من هذا القول الغريب؛ لأنها عجوز وزوجها شيخ كبير فكيف ينجبان، فبشّرتها الملائكة من الله بولادة إسحاق بن إبراهيم، وسوف ينجب إسحاق يعقوب. وفيه: تكليم المرأة من وراء حجاب، وتبشيرها بالخير، وعظيم قدرة الله في إنجاب الكبير والعجوز.

﴿٧٢﴾ ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾

قالت سارة لمّا بشّرتها الملائكة بإسحاق -متعجبة-: يا ويلتا هل يُعقل أن أنجب ولدًا وأنا عجوز آيسة من الحمل والولادة؟! وزوجي شيخ كبير مثله لا يُولد له ولد، إن هذا مما يثير العجب؛ لأن هذا لم تجر به العادة، ولكن قدرة الله نافذة، وأمره غالب جل في علاه.

٧٣ ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾

قالت الملائكة لسارة: كيف تعجبين من أمر الله وقضائه؛ فالله قدير على كل شيء فلا عجب فيما قضى، رحمة الله وبركاته عليكم يا بيت آل إبراهيم، فبرحمته يصرف عنكم العذاب، وببركاته يُضاعف لكم الثواب، فهو - سبحانه - حميد في أسمائه وصفاته وأفعاله كلها لا عيب فيها ولا نقص، ذو مجدٍ وعظمة وكبرياء وجبروت.

٧٤ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴾

فلما ذهب الخوف عن إبراهيم من الملائكة؛ لأنهم لم يأكلوا طعامه، وبشَّروه بإسحاق ويعقوب أخذ يحاور الملائكة في شأن عذاب قوم لوط وإهلاكهم يريد إمهالهم لعلَّهم أن يتوبوا.

٧٥ ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴾

إن إبراهيم كثير الحلم عن المسيء؛ ولذلك شفع في قوم لوط لإمهالهم وعدم تعجيل العذاب لهم، ثم هو كثير الدعاء واللجوء إلى الله، يتوب إلى الله في كل حال، ويعود إليه في كل أمر، فَحِلْمُه عمن أساء من الخلق، ودعاؤه فيما يريد من الخالق، وتوبته من التقصير.

٧٦ ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴾

قالت الملائكة: يا إبراهيم، اترك مجادلتنا في تأخير عذاب قوم لوط، فقد حل وقت العذاب وحان نزوله بهم، ولا راد لقضاء الله ولا دافع لما أراده، فقد قَضَى الأمر.

٧٧ ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾

ولما أتت الملائكة لوطًا ساءه مجيئهم وأصابه غم من حضورهم، ولم يكن يدري أنهم ملائكة، وخاف عليهم من قومه الأشرار، وقال: هذا يوم كربة، شرُّه مستطير، وبلاؤه شديد.

٧٨ ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾

وأسرع قوم لوط إلى بيته - لما رأوا ضيوفه - يريدون الفاحشة، ومن عادتهم قبل هذا إتيان الرجال شهوة دون النساء، فقال لوط لهم: هؤلاء بناتي تزوَّجوا بهن فهنَّ أطهر لكم مما تريدون فعله من الفاحشة، قيل: هن بنات أمته لأنهنَّ كبناته، والرسول للأمة كالأب، ثم قال لهم: احذروا غضب الله وعذابه، ولا تفضحونِ بالإساءة لضيوفي، أليس منكم رجل عاقل يردعه عقله عن هذا الفعل، وينهاه عن هذا الذنب.

٧٩ ﴿ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾

قال قومه له: أنت تدري ما لنا حاجة في النساء، وإنما رغبتنا في الرجال!! فلا تعرض علينا نكاح بناتك.

٨٠ ﴿ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾

فقال لهم لوط حينما عزموا على الفاحشة: يا ليت لي قوة وأنصارًا معي أو عشيرة مهابة تحميني منكم وأقاتلكم بهم وأمنع ضيوفي منكم.

٨١ ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴾

قالت الملائكة: لا تخف علينا يا لوط نحن مرسلون من الله وسوف ينصرنا وينصرك، ولن يتمكَّن هؤلاء الأشرار من أذانا، فاخرج من قريتك ليلاً بأسرتك وخذ من آمن معك من أهلك ولا ينظر أحد منكم خلفه فيصيبه العذاب أما

امرأتك الخائنة فسوف يصيبها العذاب مثلما أصاب قومك، إن موعد هلاكهم الصباح، وموعد الصباح بالنسبة إلى الليل قريب لا بُعد فيه.

﴿٨٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾

فلما حلَّ عذاب الله بقوم لوط قلب الله قراهم؛ فجعل أعلاها أسفلها وباطنها ظاهرها، وأنزل الله حجارة متتابعة من طين متصلب قوي.

﴿٨٣﴾ ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾

والحجارة التي رُمي بها قوم لوط معلمة بعلامات تختلف عن سواها، على أن الحجارة التي رُمي بها قوم لوط ليس بعيدا أن ينزلها الله على كفار قريش، وكل عاص مجرم، فالأفعال متقاربة والجزاء متقارب.

﴿٨٤﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾

وأرسل الله إلى مدين أخاهم النبي شعيبًا ﷺ فدعاهم أن يعبدوا الله وحده لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه، ونهاهم عن التطفيف في الكيل والوزن وبخس الناس في البيع والشراء، وكانوا في رغد من العيش، وكثرة من الأموال، وأنذرهم عذابًا شديدًا يحيط بهم من كل جانب بسبب كفرهم وتطفيفهم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

وقال لهم شعيب: يا قومي أتموا الكيل والوزن واعدلوا مع الناس في الأخذ والعطاء، ولا تنقصوا حقوق العباد، فإن عاقبة الظلم وخيمة، ولا تذهبوا في الأرض بالظلم والجور والعدوان ونشر الفساد وأذية العباد، فإن الظلم خراب للديار.

﴿٨٦﴾ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾

ما يبقى لكم من ربح مباح وما يفضل لكم من كسب حلال أفضل مما يدخل عليكم حرامًا بالغش والتطفيف، فقليل طيب ولا كثير خبيث، وإذا كنتم مؤمنين بالله أطعتم أوامره واجتنبتم نواهيه، والله يحاسبكم على أعمالكم، وأنا لستُ مطلعًا وشهيدًا على ما تفعلون، فأنا مبلِّغ فحسب.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾

قال قومه له -استكبارًا وعنادًا-: أصلاتك هذه يا شعيب التي تحافظ عليها تدعوك أن تنهانا عن عبادة الأصنام التي يعبدها الآباء والأجداد، ونترك التصرف في أموالنا التي كسبناها ولنا الحق أن نفعل ما أردنا من زيادة ونقص وحِيَلٍ ومكر في الأخذ والعطاء، ثم استهزؤوا به وقالوا: إن لك عقلاً رشيدًا دلَّك على هذه الوصايا، ولديك فهم في الأمور ما سمعنا بمثله.

﴿٨٨﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾

قال شعيب ردًا عليهم: أخبروني يا قوم إذا كان الله منحني منه هداية ربانية، ورسالة إلهية، وحجة قوية فيما آمركم به من إخلاص العبادة له وتوحيده، وترك الشرك وهجر الكسب الخبيث من تطفيف وغش، وهو - سبحانه - رزقني رزقًا مباركًا حلالاً طيبًا، وأنا لا أريد أن أدعوكم لأمر وأتركه وأنهاكم عن شيء وأفعله؛ لأن الداعية الصادق أول العاملين بما يدعو إليه، فأنا أريد إصلاحكم وهدايتكم إلى الطريق المستقيم حسب قدرتي، والله الموفق وحده، ومنه

أطلب الرشد والسداد، وعليه وحده توكَّلت، وهذا في بدء كل أمر، وإليه أرجع بالتوبة والإنابة، وهذا في نهاية كل عمل؛ فالتوكل بداية، والإنابة نهاية.

﴿٨٩﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾

يا قوم، لا تحملنكم عداوتي على مخالفتي والكفر برسالتي والإصرار على تكذيب دعوتي، فيصيبكم الله بعذاب من عنده مثل ما أصاب به قوم نوح وقوم هود وقوم صالح، وما حلَّ بقوم لوط ليس ببعيد أن يحل بكم؛ فأنتم قريبون منهم في المكان والزمان، ومثلهم في الكفر بالرحمن.

﴿٩٠﴾ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾

واطلبوا من الله أن يغفر ذنوبكم، وعودوا إليه نادمين من معاصيكم، فالله رحيمٌ بالعباد، يصرف عمن تاب عذابه، ويجزل ثوابه، ودود يتحبب لعباده بأنواع النعم، ويتوصل إلى مسرتهم بألطف أسباب الفضل، يرحم من أساء وعاد، ويتودد لمن أحسن من العباد.

﴿٩١﴾ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾

قالوا: يا شعيب ما نفهم أكثر كلامك، وما ندري ماذا تقصد بحديثك؛ تعاميًا منهم وعنادًا. وقالوا: ثم إنك مستضعف لست من الأشراف ولا من الرؤساء، وليست لك ثروة، ولولا أنا نراعي عشيرتك لقتلناك رجمًا بالحجارة - وكانت قبيلته كافرة كأمته؛ فتركوا شعيبًا من أجلهم - وليس لك عندنا احترام ولا تقدير ولا هيبة، ولا منزلة.

﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾

فأنكر شعيب قولهم، وقال: كيف تكون عشيرتي أكرم وأعز عليكم من الله؟! وهو أحق أن يُتقى ويعظم -عز وجل- وجعلتم أمر الله خلف ظهوركم استهانةً وتجبرًا لا توقرونه ولا تعملون به، إن ربي محيطٌ بكم فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية، وسوف يحاسبكم بما فعلتم.

﴿٩٣﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾

ويا قوم، اعملوا على طريقتكم الجائرة من الكفر والتكذيب فسوف ترون عاقبة أمركم، وسوف أعمل على طريقتي من الهدى والرشد وطاعة الله وإخلاص العبادة له، والعذاب سوف ينال الكاذب منا وسوف يخزيه الله ويذلُّه، وانتظروا العذاب إني منتظر ما وعدني ربي من النصر والتمكين.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾

ولما جاء أمر الله بإهلاك قوم شعيب نجى الله شعيبًا من العذاب ومن معه من المؤمنين بعناية ورعاية منه - سبحانه - وأخذت الصيحة من كفر بالله، فصاروا بعد قوتهم هامدين خامدين، لا حَراك فيهم، الجثو للإنسان كالبروك للبعير من شدة الصيحة.

﴿٩٥﴾ ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾

كأن قوم شعيب بعد هلاكهم ما عاشوا وما تمتعوا في أوطانهم زمنًا من الدهر، ألا هلاكًا لمدين وخزيًا كما أهلك الله ثمود وأخزاها؛ لأنهم اشتركوا في الكفر والتكذيب.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾

ولقد أرسل الله موسى إلى فرعون بأدلة ظاهرة وحجج بينة وبراهين ساطعة لمن تأملها بقلب واعٍ وبصيرة نيّرة تدل على وحدانية الله عز وجل.

﴿٩٧﴾ ﴿ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ﴾

أرسله الله - سبحانه - إلى فرعون وأشراف قومه، فقلَّد قوم فرعون فرعون في الكفر والتكذيب، وليس في اتباع فرعون رشد ولا هدى، بل ضلال وردى؛ لأنه رأس الفساد، وأصل الفسق والعناد.

﴿٩٨﴾ ﴿ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴾

يأتي فرعون يوم القيامة أمام قومه داخلاً النار مثلما تقدَّمهم في الدنيا إلى الكفر والطغيان، وبئس المدخل مدخلهم، وقبح هذا السبيل سبيلاً.

﴿٩٩﴾ ﴿ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ﴾

ولعنهم الله في الدنيا لعنة تلحقهم في قبورهم بعدما أهلكهم بالغرق، ولهم لعنةٌ أخرى بإدخالهم النار مع غضب الجبار، وبئس ما ترادف عليهم من غرق ولعنة وعذاب وغضب، فكل عذاب عليهم يردفه عذاب، وكل سخط يتبعه سخط آخر.

﴿١٠٠﴾ ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴾

ذلك الذي قصصناه عليك - أيها النبي - من أخبار أهل القرى الهالكين، نخبرك به، ونوحيه إليك؛ فهو الحق واليقين، ومن تلك القرى ما بقيت لها آثار قائمة، ورسوم ماثلة، ومنها ما محيت آثارها وخُرِّبت ديارها.

﴿١٠١﴾ ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴾

وما عذَّبناهم ظلمًا بغير حق، لكن جزاءً على سوء أفعالهم، فكان عذابهم عدلاً؛ لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر وترك الشكر، فما دافعت عنهم أصنامهم، ولا منعتهم من عذاب الله لما حلّ بهم، وما زادتهم الأصنام إلا خذلانًا وخسرانًا وهلاكًا، فكانت سبب التنكيل بهم.

﴿١٠٢﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾

ومثلما أهلك الله القرى الظالمة السابقة، يأخذ كل قرية شابه أهلها أهل القرى الماضية في الكفر والتكذيب، إن إهلاك الله لأعدائه موجع شديد لا يبقي ولا يذر.

﴿١٠٣﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴾

إن في إهلاك الله للقرى الظالمة عبرةً للمعتبر، وعظةً للمتعظ إذا كان يخشى ربَّه ويحذر عذاب يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين للحساب والجزاء، وتشهده كل الخلائق.

﴿١٠٤﴾ ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴾

وما يؤخِّر الله يوم القيامة إلا لأن الله قدّر له وقتًا معلومًا، فلا زيادة فيه ولا نقص، وسوف يقع في يوم أراده الله وقضاه فيه.

﴿١٠٥﴾ ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴾

إذا وقع يوم القيامة لا تتكلم أي نفس إلا إذا أذِنَ الله لها بالكلام؛ لهول المقام، فمن الناس من شقي لسوء عمله، فله العذاب، ومنهم من سعد لحسن عمله، فله الثواب.

﴿١٠٦﴾ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٞ ﴾

فأما الأشقياء فمأواهم نار تلظى، خالدين فيها أبدًا، لهم في النار من شدة العذاب زفير وشهيق، وهو أشد صوت للمكظوم المغموم، فالزفير آهات المكروب، والشهيق صيحات المنكوب.

﴿١٠٧﴾ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

يمكثون في النار أبدًا ما دامت السموات والأرض، فلا ينقطع عذابهم ولا ينتهي ولا يخفف عنهم ولا يخرجون منها، إلا إذا شاء الله أن يخرج أحدًا من عصاة أهل التوحيد بعد أن يعذبوا بذنوبهم في النار؛ لأن الله يفعل ما شاء كما شاء إذا شاء.

﴿١٠٨﴾ ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾

وأما السعداء فمأواهم جنات النعيم في جوار ربٍّ كريم، يمكثون فيها ما دامت السموات والأرض إلا من شاء الله أن يتأخر في دخول الجنة، وهم عصاة الموحدين الذين يعذبون في النار ثم يدخلون الجنة، فإنهم يتأخرون عنها زمنًا، وعطاءُ الله في الجنة لأوليائه غير مقطوع عنهم ولا ممنوع منهم، بل دائم لهم مغدق عليهم، سريع إليهم.

﴿١٠٩﴾ ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴾

فلا تكن - أيها النبي - في شكٍ من بطلان عبادة المشركين للأوثان، فإنها باطلة حقًا، وهم إنما يقلدون آباءهم الجهلاء في عبادة الأصنام، وسوف يوفيهم الله جزاءهم على سوء فعلهم بلا نقص ليلقوا وبال ما عملوه.

﴿١١٠﴾ ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾

ولقد أنزل الله على موسى التوراة فَصَدَّق بها بعض بني إسرائيل وكفر بها بعضهم، ولولا أن الله كتب عنده ألا يعجل للعصاة العذاب - حيث أراد إمهالهم - لحلَّ ببني إسرائيل قضاؤه بإهلاك الكفار ونجاة الأبرار. وإن كفار أمة محمد ﷺ في شك من القرآن وريبة؛ لعدم تصديقهم والزيغ الذي وقع في قلوبهم.

﴿١١١﴾ ﴿ وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾

وكل الأمم المختلفة التي قصها الله على نبيه ﷺ سوف يوفيهم الله -عز وجل- أعمالهم الجزاء الأوفى؛ لينال المؤمنون ثواب ما فعلوه، وينال الكفار عقاب ما صنعوه، والله خبير بأعمال الجميع، لا تخفى عليه من أعمال الخلق خافية.

﴿١١٢﴾ ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾

فاستقم - أيها النبي - على دين الله كما أمرك الله، واعبد الله بما شرع، أنت ومن تاب معك واهْتَدَى بهداك من المؤمنين، ولا تتجاوزوا حدود الله فإن الله بصير بأعمالكم، يحصيها لكم، وهو مطلع عليها، لا تخفى عليه خافية. وفي قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ الجمع بين العلم النافع والعمل الصالح، وفعل المشروع وترك البدع، ولزوم الجادة والحذر من المخالفة؛ وهذا أبلغ الكلام.

﴿١١٣﴾ ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

ولا تميلوا لكل كافر وظالم بالمحبة والموالاة؛ فتحرقكم نار جهنم، ولن يتولاكم أحد من دون الله أو يدفع عنكم العذاب أحد سواه، فلا يجلب النفع إلا هو ولا يدفع الضر إلا هو.

﴿١١٤﴾ ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

وأدِّ الصلاة على أكمل وجه في الصباح والمساء وفي ساعات من الليل، إن فعل الصالحات يكفِّر الخطيئات، ورأس الحسنات الصلوات الخمس، وهذا البيان عظة لمن يتعظ، وعبرةٌ لمن يعتبر.

﴿١١٥﴾ ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

واصبر على طاعة الله وأقداره المؤلمة، وعن معاصيه المحرمة، فإن الله لا يضيع ثواب من أحسن في عمله بفعل المأمور، واجتناب المحذور، والرضا بالمقدور، ومن ذلك اتباع الهدى، وبذل الندى، وكف الأذى.

﴿١١٦﴾ ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾

فهلا وُجِدَ من القرون السابقة بقايا من أهل الإيمان والصلاح ينهون أهل الباطل والكفر عن عملهم، وينهون الظلمة عن الظلم، لم يوجد من الصالحين إلا قليل، فالله نجاهم وحماهم بسبب صلاحهم ونهيهم عن المنكر، واتبع عامة الكفار وغالبهم من الظالمين لأنفسهم متاع الحياة الدنيا وشهواتها الفانية ولذائذها الزائلة، ونسوا الآخرة، وكانوا عتاة مردة على أمر الله، متجاوزين لحدوده، عاصين لرسوله.

﴿١١٧﴾ ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

وما كان ربك - أيها النبي - ليهلك قرية من القرى أو يدمِّر أمة من الأمم وأهلها مصلحون في الأرض مجتنبون للفساد والظلم، وإنما يهلكهم بسبب ظلمهم. وقيل: وما كان الله ليهلك القرى بالشرك وحده إذا كانوا مصلحين فيما بينهم بالعدل وإعطاء الحقوق؛ فالعدل يمنعهم من الهلاك في الدنيا، ويؤخر لهم العذاب على الشرك في الآخرة.

﴿١١٨﴾ ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾

ولو أراد الله لجعل الناس كلهم جماعة واحدة على قلب واحد ودين واحد هو الإسلام، ولكن الله لم يرد هذا لحكمة عظيمة، ولا يزال الناسُ مختلفين في أديانهم لتقوم سنة التدافع وتحصل المجاهدة والابتلاء.

﴿١١٩﴾ ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

لكن الذين رحمهم الله بالإيمان واتباع الرسل - عليهم السلام - لا يختلفون؛ فهم على دين الإسلام، وتوحيد الله الخالص، والله أراد أن يخلقهم مختلفين، أبرارًا وفجارًا، وسعداء وأشقياء، وكلٌ ميسَّر لما خُلق له، لتتم حكمة الله ووعده ووعيده، وما أعده من جنة للصالحين ونار للكافرين، فبهدايته لأوليائه يملأُ جنته، وبإضلاله لأعدائه يملأ ناره.

﴿١٢٠﴾ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وكل ما يلزمك من العبر وتستفيده من العظات والتجارب سوف نخبرك به من أخبار الرسل السابقين؛ ليتقوى قلبك في مواجهة الأزمات، وتثبت في الخطوب، وقد وصل إليك في هذه السورة وما فيها من حِكم وأسرار أبلغ العظات وأجلّ العبر، وبيان الحق الذي أنت عليه، وأتتك النصائح التي ترشد إلى الخير، وتحذر من الشر، وذكرى لمن كان له قلب ينتفع بها وتؤثر فيه.

﴿١٢١﴾ ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾

وقل - أيها النبي - للكافرين المكذبين بوحدانية الله -: اعملوا كما كنتم تعملون من محاربة لله ولرسوله ﷺ وصد عن سبيله وكفر به وبكتابه، إنا عاملون على حالنا من الإيمان بالله واتباع رسوله ﷺ والجهاد في سبيله ونشر دينه.

﴿١٢٢﴾ ﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

انتظروا عاقبة أمرنا من النصر والتوفيق، إنا منتظرون عاقبة أمركم من الخذلان والهلاك.

﴿١٢٣﴾ ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

والله وحده - جل في علاه - عالم بكل ما غاب عن سمع البشر وبصرهم مما في السموات والأرض، وإليه يعود كل أمرٍ في الآخرة؛ ليقضي فيه بما يشاء، فأخلص العبادة له، وفوِّض أمرك إليه؛ لتُحقِّق (إياك نعبد وإياك نستعين)، والله ليس بغافل عن عمل العباد من خير أو شر؛ فهو عالم مطلع على كل صغيرة وكبيرة، وسوف يجازي الجميع، فلمن أحسن الثواب، ولمن أساء العقاب.

مكية

| ترتيبها | | آياتها |
|---|---|---|
| ١٢ | سورة يوسف | ١١١ |

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾

الله أعلم بمراده بالحروف المقطعة.

هذه آيات القرآن الواضح البيِّن في أدلته ومعانيه، الساطع في براهينه، الفاصل في أحكامه.

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾

الله أنزل هذا الكتاب بلغة عربية مفهومة واضحة؛ من أجل أن يفقه الناس معانيه، ويعملوا بهداه، ويفهموا مقاصده.

(٣) ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾

الله يقص عليك - أيها النبي - أحسن القصص لفظًا ومعنى وأسلوبًا ومبنى، وإن كنت - أيها النبي - قبل إنزال القرآن عليك من الغافلين عن هذه الأخبار لا تعلمها ولا تدري بها؛ لأنها لا تحصل إلا بطريق الوحي.

(٤) ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾

واذكر يوم قال يوسف لأبيه يعقوب، إني رأيت في منامي أحد عشر كوكبًا، ورأيت الشمس والقمر كلها ساجدة لي، وهذه أول بشرى ليوسف وقد تحققت بعد البلاء، فحصلت له النبوة والحكمة والملك، ثم جمع الله شمله بأهله، فسجد له أبواه وهما الشمس والقمر في الرؤيا، وإخوته الأحد عشر، وهم الكواكب.

(٥) ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾

قال يعقوب لابنه يوسف: لا تحدِّث إخوانك بما رأيت في المنام؛ لأنها رؤيا عظيمة تثير حسدهم، وأخشى أن يحتالوا عليك، ويسعوا في كيدك وهلاكك؛ لأن الشيطان قوي العداوة، ظاهر المكر بالإنسان. وفيه ستر النعم عن عيون الحاسد وكتم السر.

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾

وكما أراك الله هذه الرؤيا فسوف يختارك ويصطفيك ويعلِّمك تفسير الرؤى المنامية والإخبار بمقاصدها، ويتم عليك النبوة والحكمة وعلى آل يعقوب من أسرتك، كما أتمها وأسبغها على أبويك إبراهيم وإسحاق النبيّين الكريمين، إن ربك يعلم من يستحق الاصطفاء، حكيم في جعل فضله فيمن يشاء، فبعلمه اطلع، وبحكمته وضع.

(٧) ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾

لقد كان في قصة يوسف وإخوانه دليل ظاهر وعبرةٌ واضحة على حكمة الله وقدرته لمن سأل من العالم عن أخبارهم، وأحبَّ معرفة قصتهم، وهذه القصة أحسن القصص في التاريخ على الإطلاق.

﴿٨﴾ ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

إذ قال إخوة يوسف بعضهم لبعض: إن يوسف وأخاه الشقيق أحبُّ إلى أبينا منا، فهو يؤثرهما بالإقبال والعناية والحظوة أكثر منا، ونحن أسرة واحدة لا فرق بيننا، إن أبانا وقع في غلط عظيم بيّن؛ حيث لم يعدل بيننا في الحب، ونحن أبناء رجل واحد، ولا فضل لأحد منا على أخيه.

﴿٩﴾ ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾

اقتلوا يوسف أو ضعوه في ديار مجهولة بعيدة عن القرى، يصفُ لكم ودٌّ وحب أبيكم ويخصكم بالإقبال والحفاوة، ولا يجد من يشغله عنكم، وبعد قتل يوسف وإبعاده تتوبون إلى الله من فعلكم، وباب التوبة مفتوح، أي أنهم حدَّثوا أنفسهم بالتوبة قبل الذنب، وبعد هذه الفعلة يصلح حالكم مع ربكم ومع أبيكم.

﴿١٠﴾ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

قال أحدهم مشيرًا عليهم: لا تقتلوا يوسف وضعوه في جوف البئر، علَّ بعض المارة المسافرين يلتقطونه فنستريح منه ولا نتحمَّل قتله إذا عزمتم على هذا الفعل، وهذا أرحمهم بيوسف فكيف بسواه؟!

﴿١١﴾ ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾

قال إخوة يوسف لأبيهم يعقوب بعد أن اتفقوا على نفي يوسف: يا أبانا، ما لك لا تجعلنا أمناء على أخينا يوسف؟ لماذا تشك في حبنا ونصحنا له وحبنا له الخير ونحن سوف نحفظه ونمنحه المودة ونصدق في رعايته.

﴿١٢﴾ ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

أرسل يوسف معنا إذا ذهبنا نرعى الغنم غدًا ينعم بأكل ما طاب من الثمار، ويرعى معنا الأغنام، ويلعب بالمسابقة والرمي واللعب المباح، ونحن سوف نحفظه من كل ما يخاف. ومن مأمنه يُؤتى الحذر.

﴿١٣﴾ ﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾

قال لهم أبوهم يعقوب: إنه يدخل الألم على قلبي مفارقة يوسف، وأخشى أن يأكله الذئب؛ ففتح لهم هنا باب الاعتذار بالذئب، ثم قال: وأنتم متشاغلون عنه باللعب لاهون بالسباق؛ فالتمس لهم العذر قبل الواقعة.

﴿١٤﴾ ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

قالوا لأبيهم: والله إن الذئب لو أكله ونحن جماعة قوية وفينا شجاعة فإنه لا خير ولا منفعة ولا رجولة فينا، وهذا لا يكون أبدًا، وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه.

﴿١٥﴾ ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

فأرسل يعقوب يوسف مع إخوانه، فلما ساروا به وأبعدوا في الصحراء أزَّهم الشيطان واتفقوا على وضعه في البئر، ولكن الله أوحى إلى يوسف بأنه سوف ينجو ويخبر إخوانه بما فعلوا به، وهم لا يدرون بذلك الأمر، وما أعظم رعاية الله ليوسف، حيث أوحى إليه وآنسه وحده وأنزل عليه السكينة وبشَّره بالفرج وثبته في الامتحان، فإذا كان الله معك فمن تخاف؟ وإذا كان الله ضدك فمن ترجو؟ وإذا لاحظتك عيون الرعاية فنم في كنف العناية، والكربات أمن في كهف الولاية.

﴿١٦﴾ ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾

وجاء أبناء يعقوب بعد وضع يوسف في البئر إلى أبيهم وقت العشاء يبكون على يوسف ويظهرون الحزن والجزع، وهو مشي القاتل في جنازة المقتول، فيظهر التباكي من البكاء عند الأذكياء، وكم من باك شاكٍ وهو ظالم؟ وكم من ساكت غافل وهو مظلوم فلا يغتر بالظاهر.

﴿١٧﴾ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾

قال إخوة يوسف: يا أبانا، إنا جرينا وتسابقنا وتركنا يوسف عند طعامنا وثيابنا في محل إقامتنا وفي محل آمن، فليس الخطأ منا وما غبنا عنه كثيرًا، فخلفنا الذئب عليه فأكله وأنت لا تصدقنا أبدًا فيما قلنا ولو كنا معروفين بالصدق؛ لأنك تتهمنا وتغالي في حب يوسف، وهذا التوجس منهم من باب: كاد المريب أن يقول خذوني، ومن ساء فعله ساء ظنه.

﴿١٨﴾ ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

وأتوا بثوب يوسف ولطّخوه بالدم وليس بدم يوسف، وجعلوا ذلك شاهدًا على صدقهم، فكان دليلاً على كذبهم؛ لأن القميص كان سليمًا لم يمزق، فقال يعقوب بعدما أراه الله بنور البصيرة زيف ما قالوا: هذا كذب منكم، ولكن الشيطان زين لكم، وأنفسكم الأمارة بالسوء حسنت لكم أمرًا قبيحًا وتدبيرًا سيئًا في يوسف، فسوف أصبر صبرًا جميلاً لا تَسَخُّط فيه من الخالق ولا شكوى فيه للمخلوق، والله أستعينه على احتمال هذا المصاب الذي دبرتموه، وأتوكل عليه في دفع ما تصفونه من الكذب.

﴿١٩﴾ ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

وأتت قافلة مسافرة، فأرسلوا أحدهم يأخذ لهم ماءً من البئر، فلما أنزل دلوه في البئر تعلق به يوسف، فصاح واردهم: يا بشرى هذا غلام له شأن، وأخفى إخوة يوسف أمره وكانوا قريبين منه، ولم يخبروا أنه أخوهم، وقالوا: هذا غلام للبيع من الرقيق والله عليم بما يعملون لا تخفى عليه خافية.

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

وباع أهل القافلة يوسف بثمن قليل من الدراهم وكانوا زاهدين فيه ليس لهم رغبة في بقائه معهم، يريدون التخلص منه؛ إذ لا يعرفون قدرته ولا يدركون مكانته.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

وسارت القافلة به إلى مصر فاشتراه العزيز (وزير مصر) منهم، وأوصى زوجته أن تحسن ضيافته وتكرم وفادته، لعله ينفعهم في الخدمة أو يقوم مقام الولد، وكما أنجى الله يوسف وجعل وزير مصر يكرمه، كذلك مكّن الله ليوسف في مصر وجعله يشرف على خزائنها وكنوزها؛ وليعلمه الله تأويل الرؤى فيخبر الناس بما يرون في المنام، والله غالب على أمره لا يرده راد ولا يمنعه مانع، نفذ قضاؤه كما شاء، ووقع حكمه كما أراد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أسرار القضاء، وبأن الأمر بيد الواحد الأحد؛ فيجهلون أسرار القدرة ومقاصد الحكمة.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

ولما وصل يوسف إلى تمام القوة في الشباب منحه الله الفهم والعلم والإصابة في الحكم، ومثل هذا التكريم من الله ليوسف على حسن عمله يكرم الله كل محسن على إحسانه، وفيه تسلية للرسول ﷺ وعزاء فيما يلقاه.

﴿٢٣﴾ ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

ودعت زوجة العزيز يوسف بزينة وإغراء إلى نفسها وهو في بيتها، وهي ذات منصب وجمال ومال، وهو شاب عزب غريب أجمل الناس، ثم إنها أغلقت الأبواب، وهي التي تطلبه، ومع ذلك اعتصم بالله وانتصر على نفسه وهواه، وقالت له: هلم وأقبل إليّ، فردَّ عليها بقوله: معاذ الله، ألتجئ إليه، أستجير به من هذا الفعل المشين المحرم الذي فيه

خيانة لله، ثم لسيده في أهله وقصره، فهو أكرم نُزلي، وأحسن وفادتي، فكيف أقابل الجميل بالقبيح؟! هذا ظلم، والظالم لا يوفق ولا يُعان بل يخذل ويخسر.

٢٤ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

ولقد أرادته ومالت نفسها ليوسف تطلب إليه ما تطلب المرأة من الرجل، وحدَّث نفسه بها وخطرت له خاطرات ولم يعزم، وقد رأى يوسف آية من آيات الله وبرهانًا يزجره عن فعل الفاحشة لطفًا من الله؛ ليحصنه من فعل القبيح وعمل الزنا؛ لأن يوسف من الصادقين في طاعة الله، المخلصين له العبادة، المصطفين للنبوة، المطهرين من الدنس، وفي هذا أعظم انتصار على النفس بتقوى الله.

٢٥ ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وهرب يوسف إلى الباب يريد الفرار منها، وأسرعت تريد الإمساك به، وسحبت قميصه فمزقته من ورائه لتمنعه من الخروج، وفجأة وجدا زوجها عند الباب، فصاحت متظلمة وهذا من كيدها: ما جزاء من أراد أن يفعل الفاحشة بزوجتك إلا أن تسجنه وتعزره بعذاب موجع يردعه عن فعله المشين؟

٢٦ ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

فردَّ يوسف وقال لسيده: هي التي أرادتني وطاردتني وطلبت إليَّ ذلك، وشهد أحد من الدار، قيل: صبي من أهل المرأة؛ ليكون أبعد للتهمة: إن كان قميصه مُزِّق من الأمام فصدقت في دعواها وكذب هو فيما قال؛ لأنها دليل على أنه كان يطاردها.

٢٧ ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

وإن كان قميص يوسف مُزِّق من خلفه فهذا دليل على أنها كانت تطارده فكذبت في دعواها وصدق هو فيما قال، وانظر كيف يسَّر الله الحكَمَ من أهل الدار بعلامة أظهرت صدق يوسف.

٢٨ ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

فلما شاهد الزوج قميص يوسف مُزِّق من خلفه علم أنها كانت تطارده وهو يهرب، وهذا دليل على براءة يوسف، فقال لزوجته: هذه الحيلة والشكوى منك ضد يوسف من جملة مكركن أيتها النساء، إن مكركن عظيم لا يُطاق؛ لأنه يقع بخفاء مع البكاء والادعاء.

٢٩ ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾

وقال العزيز: يا يوسف، لا تتكلم بما حصل ولا تذكره لأحد حفاظًا على سمعة القصر، وأنت - أيتها الزوجة - اطلبي إلى ربِّك الغفران إن كنتِ مذنبة في مراودة يوسف عن نفسه وكذبك عليه، والأسلم دائمًا الإعراض عن الخوض في مسائل الأعراض.

٣٠ ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

وانتشر الخبر في المدينة، فقالت النساء منكرات على زوجة العزيز: كيف تراود هذه المرأة في شرفها ومنصبها غلامها وتخون زوجها، إنها ما فعلت هذا إلا بعد ما وصل حب يوسف غلاف قلبها واستقر في سويدائه، إنَّا نراها في فعلها القبيح في خطأ ظاهر وفعل شائن بيّن.

﴿٣١﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾

فلما سمعت امرأة العزيز بأن نساء المدينة يغتبنها ويستعملن الحيلة في نشر ما جرى بينها وبين يوسف دعتهن إلى زيارتها في القصر، وهيأت لهن وسائد يتكئن عليها، وأحضرت فاكهة وأعطت كل امرأة سكينًا بيدها تقطع بها الفاكهة، ثم أمرت يوسف أن يخرج فجأة على النساء، فلما رأين حسنه الظاهر وجماله الباهر، أعظمنه غاية الإعظام، فدُهشن من حسنه وجرحن أيديهن من شدة الذهول، وقلن من العجب والحيرة والانبهار: معاذ الله، والله لا يكون هذا من جنس البشر، فما رأينا مثله أبدًا!! فجماله غير معهود وحسنه غير موجود، ما هذا إلا ملك من الملائكة شريف مطهر وليس ببشر.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾

فقالت زوجة العزيز بعدما رأت ذهول النساء من حسن يوسف الأخاذ وجماله الجذاب: هذا الذي سلب لبي وأذهل قلبي مثلما فعل بكن، فلا لوم علي بعد اليوم، ولقد لاحقته وحاولت إغراءه وأنا التي طلبته، ولئن لم يستجب لي ويوافق على مرادي لأحبسنّه عقابًا لامتناعه، ولأجعلنه ذليلاً مهانًا لإصراره على رأيه في عدم مطاوعتي. وإنها والله فتنة عظيمة عرضت ليوسف ما بين إغراء من امرأة حسناء في شرف باذخ ومنصب عالٍ وطلب منها ملح، ثم تهديد شديد ووعيد أكيد، وهو غلام مستضعف وغريب مضطهد، ومع هذا يعتصم بالواحد الأحد، فيحيطه بالعناية، ويحفظه بالرعاية ويسدل عليه رداء الولاية.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾

قال يوسف معتصمًا بالله: يا رب، دخولي السجن أحب إلى قلبي وأهون عليّ من ارتكاب الفاحشة، وإذا لم تعنِّي على نفسي وتقهر هواي وتمنعني من حبائل النساء أمل إليهن وأقع في هواهن، وأُصبح من السفهاء الذين يرتكبون الحرام، ويقعون في الآثام؛ لجهلهم بالأحكام.

﴿٣٤﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

فأجاب الله دعوة يوسف لإخلاصه وصدقه وحفظه من فتنة امرأة العزيز وصويحباتها؛ إن الله يسمع دعاء الداعي ويعلم صدقه من كذبه، وسامع للأصوات عالم بالأعمال والنيات.

﴿٣٥﴾ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾

ثم ظهر للعزيز وأعوانه أن من المصلحة سجن يوسف مع عفته ونزاهته منعًا للقيل والقال، وجعلوا مدة السجن زمنًا غير محدد قد يطول وقد يقصر، وهذا من رفعة الله ليوسف بالبلاء؛ ليرفع درجته وتعلن براءته، ويتم الاصطفاء عن طريق المعاناة واللأواء.

﴿٣٦﴾ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

ودخل مع يوسف في السجن فتيان من فتيان الخدمة عند الملك، فسأله أحدهما عن رؤياه في المنام إذ يعصر عنبًا ليكون خمرًا، وقال الثاني: إني رأيتُ أنني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه، أخبرنا بتفسير ما رأينا؛ لأننا رأيناك ممن صدق في عبادته وأحسن في طاعته مع كمال الخلق وجمال المروءة.

﴿٣٧﴾ ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

قال يوسف للفَتَيين: قبل أن يأتيكما أي طعام مما رزقكما الله أخبركما به - بإذن الله - قبل وصوله إليكما، وهذا مما علمنيه ربي من تعبير الرؤى؛ لأنني آمنت بالله وحده وأخلصتُ له العبادة وكفرت بكل ما يُعبد من دون الله،

وهجرت كل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر الذين ينكرون البعث والنشور والحساب والجزاء. وانظر كيف أَدْخَلَ يوسف دعوته إلى التوحيد في تعبيره للرؤى؛ لأنها أعظم قضية.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾

واتبعتُ دين آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب (ويسمي الجد أبًا) فأفردتُ ربي بالعبادة وأخلصتُ له الدين، ما ينبغي لنا أن نتخذ مع الله شريكًا آخر، ذلك الدين القيم من توحيده - سبحانه - وعدم الإشراك به مما تفضل الله به علينا وعلى الناس، ولكن غالب الناس لا يشكرون الله على نعمة الهداية للإيمان، وأكثرهم لا يقرون بوحدانية الله.

﴿٣٩﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾

وقال يوسف للغلامين اللذين كانا معه في السجن: أعبادة آلهة مخلوقة متفرقة خير للإنسان، أم عبادة الله الواحد القهار؟ بل عبادة الله؛ لأنه الخالق الرازق المستحق للعبادة، وانظر كيف شرح لهم الإيمان بالله ودعاهم إلى التوحيد قبل تعبير الرؤيا؛ لأنه أجلُّ وأهم.

﴿٤٠﴾ ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ما تعبدون من دون الله إلا أسماء لا حقيقة لها ولا معاني لمدلولها، فهي جامدة لا تنفع ولا تضر، صيرتموها أنتم وآباؤكم أربابًا من دون الله بزعمكم، وهي صماء بكماء، ما أنزل الله على صحة عبادتها من دليل قاطع ولا برهان ساطع، فالحكم في السموات والأرض لله وحده لا شريك له، فهو الذي يقضي بالعدل ويفصل بالحق، أمر أن لا توحدوا غيره ولا تعبدوا سواه، فله الانقياد التام، والخضوع الكامل، وهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم الذي أتت به الكتب، ودعت إليه الرسل، ولكن غالب الناس يجهلون حقيقة ذلك، فلا يخلصون لله العبودية، وانظر كيف بسط الدعوة للتوحيد؛ لأنها الأصل الأعظم في حياة العبد.

﴿٤١﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾

يا صاحبي السجن اسمعا تفسير رؤياكما، أما الأول الذي رأى أنه يعصر العنب في المنام فإنه يفرج عنه من السجن، ويصبح ساقيًا للخمر عند الملك، وأما الثاني الذي رأى أنه يحمل على رأسه خبزًا فإنه يحكم عليه بالإعدام ويقتل ويترك مصلوبًا فتنهش الطير من رأسه وتأكل من لحمه، فرغ وانتهى الأمر الذي تسألان عنه من تفسير الرؤى، وقد وقع الأمر كما أخبر وما تأخر.

﴿٤٢﴾ ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾

وقال يوسف للساقي الذي نجا من القتل وذهب في خدمة الملك: اذكر اسمي عند سيدك الملك واشفع لي وأخبره أني محبوس ظلمًا بلا جرم، عسى أن يأمر بإطلاقي ويكفي السجن عذابًا وكربة، فأنسى الشيطان الغلام أن يذكر ذلك للملك، فمكث يوسف عدة سنوات محبوسًا، وقيل هذا بلاء من الله ليوسف؛ لأنه طلب من الغلام الشفاعة عند ربه وهو الملك، والواجب أن يلتجئ يوسف إلى ربه ملك الملوك سبحانه.

﴿٤٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾

وقال ملك مصر: يا قوم، إني رأيت في منامي سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع بقرات ضعيفات هزيلات، ورأيتُ سبع سنبلات خضر مملوءة حبًا، ورأيتُ سبع سنبلات يابسات، أيها الأشراف: فسِّروا لي الرؤيا إن كان لكم علم بها، والله إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه وسوف تكون هذه الرؤيا سببًا للإفراج عن يوسف ﷺ.

﴿٤٤﴾ ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾

قال الأشراف: رؤياك هذه أخلاط من الأحلام لا حقيقة لها ولا تفسير، ولسنا نعلم تفسير الأحلام.

﴿٤٥﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴾

وقال الغلام الذي نجا من القتل وصار ساقيًا للملك وتذكر طلب يوسف إليه بعد مدة وقد نسي: أنا أستطيع أن آتيكم بتفسير هذه الرؤيا، فدعوني أذهب إلى يوسف ليعبرها لي.

﴿٤٦﴾ ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾

ولما لقي الغلام يوسف قال له: يوسف أيها الصديق عبر لنا رؤيا رجل رأى في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات هزيلات، ورأى سبع سنبلات خضر ورأى سبعًا يابسات؛ لعلي أعود إلى الملك وأصحابه فأخبرهم بتفسير الرؤيا؛ لعلّهم ينتفعون بتأويلها ويعلمون فضلك وعلمك.

﴿٤٧﴾ ﴿ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴾

فأجابه يوسف وفسَّر له الرؤيا، وهي أنكم تزرعون سبع سنين متتابعة مجتهدين في الزراعة ليكثر الإنتاج، فإذا حصدتم الزرع فاتركوا الحب في سنبله ليبقى محفوظًا من السوس وغيره من الآفات إلا قليلاً تأكلونه في طعامكم، وهذه نظرية الادخار ودراسة عوامل التغير الاقتصادية.

﴿٤٨﴾ ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴾

ثم يأتي بعد هذه السنين الخصبة سبع سنين فيها جدب وقحط لا أمطار فيها ولا ثمار، فكلوا فيها ما ادخرتموه من حبوب السنين الخصبة.

﴿٤٩﴾ ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴾

وبعد السنين العجاف المجدبة تأتي سنة الأمطار والثمار، ويأتي الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، وتُعْصَر في هذه السنة الثمار من كثرة الخيرات والثمار.

﴿٥٠﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾

فلما سمع الملك بتعبير الرؤيا طلب من أعوانه إحضار يوسف من السجن، فلما جاء رسول الملك إلى يوسف في السجن وطلب منه الحضور للملك، قال له يوسف: عد إلى الملك واسأله لماذا جرحت النسوة أيديهن لما خرجتُ عليهن؟ وما السبب في ذلك؟ لتظهر براءته وتكتشف الحقيقة للناس، إن ربي يعلم بخديعة النساء ومكرهن معي ولا تخفى عليه خافية، وسوف يظهر الحق - سبحانه - وما ابتلي العبد بمثل فتنة النساء، والسعيد من سلمه الله كيوسف ﷺ.

﴿٥١﴾ ﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال الملك للنساء اللواتي جرحن أيديهن بالسكاكين: ما شأنكن وأخبرنني لماذا راودتن يوسف عن نفسه يوم الضيافة في القصر؟ هل طاوعكن وهل وجدتم منه رغبة فيكن؟ قلن: معاذ الله، وكلا والله، والله ما علمنا منه أدنى ريبة ولا ما يعيبه، عندها نطقت زوجة العزيز بالحق صريحًا فقالت: الآن ظهر الحق بعد الخفاء، وبان الصدق بعد الالتواء، أنا والله حاولت فتنته وأنا حرصتُ على إغرائه وإغوائه؛ فأبى واعتصم بالله، ووالله إنه صادق في كل ما قال وإنه مظلوم.

٥٢ ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾

وهذا الذي أقوله وأشهد به وأقرُّ به على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالكذب عليه، ولم تقع مني الفاحشة، وأنا أعترف أنني راودت يوسف وأقررت بذلك؛ لتظهر براءتي وبراءته، وقيل: ليعلم يوسف أني لم أخنه وهو غائب وأدعي عليه كذبًا، والله لا يوفق كل خائن ولا يسدد دعواه ولا يلهمه الحجة، ولا يدلُّه على الهدى، فلا رشد لخائن، ولا فلاح لكذاب.

٥٣ ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قالت زوجة العزيز: وأنا لا أزكي نفسي ولا أبرئها، فإن النفس تأمر صاحبها دائمًا بعمل السيئات وارتكاب المعاصي، فهي جامحة إلا من ألجمها بلجام التقوى، وهذا يحصل لمن عصمه الله وحفظه، والله كثير الغفران لعباده إذا استغفروه، رحيم بهم لا يعاجلهم بالعقاب، بل يمهلهم ويوفقهم للمتاب.

٥٤ ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾

فلما بلغت ملك مصر براءة يوسف وتقواه وشرف أخلاقه: قال: عليَّ به أجعله من أهل مودتي ومن أقرب الناس مني؛ لينال حظوتي وأستفيد من مشورته، فلما حضر يوسف وكلمه الملك وعرف رجاحة عقله وحسن أدبه، وعظيم أمانته وطهارة عرضه ونزاهته قال له: إنك يا يوسف، عندنا عظيم المكانة، مؤتمن على كل شيء. وهذا ملك من ملوك البشر جازى يوسف أحسن الجزاء على فضله وورعه وصلاحه، فكيف بملك الملوك -عز وجل- الذي يحب التوابين ويحب المتطهرين والصادقين.

٥٥ ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

وأحبَّ يوسف أن يعبد ربه بنفع عباده وإقامة العدل فيما بينهم ودعوتهم إلى الهدى، فقال للملك: اجعلني واليًا على الخزائن فإني أمين على ما استودعت، عليم بالحساب والكتاب، وصاحب بصيرة في الادخار والصرف، وفي الآية طلب المنصب لمن تحققت فيه الأهلية وتجرد عن الهوى وكان أمينًا عالمًا ضابطًا قائمًا بحقوق المسؤولية.

٥٦ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

ومثلما منَّ الله على يوسف بالخروج من السجن والبراءة من التهمة وتتابع النعم من العلم والتأويل والأمانة، مكَّن الله له في أرض مصر يتجول فيها حيث يشاء، ويحكم بما أراه الله، والله يهب من شاء من عباده رحمة تهديه، ورعايةً تتولاه، وعنايةً تحرسه إذا اتقاه العبد وخافه، وهو - سبحانه - لا يبطل عمل المخلص الصادق، بل يثيبه أجلَّ الثواب مع حسن العاقبة وطيب العيش والتسديد في كل أمر.

٥٧ ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

ولثواب الله في الآخرة لمن أحسن أعظم من ثواب الدنيا؛ لأنه خير وأبقى، وهو حاصل لمن حقق الإيمان بالله، ولزم تقواه بفعل ما أمر واجتناب ما نهى.

٥٨ ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾

وأتى إخوة يوسف من فلسطين إلى مصر بعد أن مسَّهم الفقر، وحلَّ بهم الجدب لطلب الطعام، فلما دخلوا على يوسف عرفهم ولم يعرفوه لطول الزمن وتغير الحال واختلاف صورته، وهو دليل على تمام فطنته ﷺ، فهم أيضًا تغير حالهم وتغيرت صورهم، ولكنه كان أذكى وأعرف.

٥٩ ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾

ولما أحسن وفادتهم، وأكرم ضيافتهم، وأجزل لهم ما طلبوه، ومنحهم فوق ما أملوا شأن البررة الكرام، وقد أخبروه أن لهم أخًا من أبيهم تركوه في أرضهم، طلب منهم يوسف إحضار أخيهم من أبيهم، وهو شقيقه، وذكّرهم بالجميل من إيفاء الكيل لهم والإكرام، فهو خير من أكرم الضيف، وأتحف الوافد، فمن حقه أن يُجَابَ طلبه.

﴿٦٠﴾ ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾

وقال يوسف لإخوته: فإذا لم تحضروا أخاكم من أبيكم فلن أكيل لكم طعامًا بعدها، وليس لكم عندي ضيافة، فلا تقربوا قصري ولا تدخلوا داري.

﴿٦١﴾ ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾

قال إخوته له: سنحاول كل محاولة، ونبلغ طاقتنا في إقناع أبينا في إرسال أخينا معنا ونجتهد في ذلك.

﴿٦٢﴾ ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

وأمر يوسف غلمانه: أن يجعلوا ثمن ما أخذه إخوانه في أمتعتهم سرًا، عسى أن يروا أن الثمن قد أُعيد إليهم مع البضاعة؛ ليُعرف كرم يوسف فيعودوا إليه طمعًا في المزيد؛ وليحرصوا على إحضار أخيهم؛ ولأن الإحسان يقيد الإنسان.

﴿٦٣﴾ ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

فلما عاد إخوة يوسف إلى أبيهم، وأخبروه بإكرام العزيز وحسن خلقه وكريم شمائله، وأنه لن يكرمهم مرةً أخرى، ولن يبيع لهم طعامًا إلا إذا أحضروا أخاهم من أبيهم، فأرسله معنا إلى مصر لمقابلة العزيز حتى نحضر لكم الطعام، ونعاهدك على حفظ أخينا وحسن القيام عليه.

﴿٦٤﴾ ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

قال لهم أبوهم: كيف آمنكم على (بنيامين) وأنتم غدرتموني في يوسف من قبله وقد أمنتكم عليه فلن أثق بوعدكم، ولن أُصَدِّق كلامكم، ولن أركن لحفظكم، لكن أركن لحفظ الله خير الحافظين، فبرحمته يحفظ يوسف، ويرده عليّ، ومن رحمة أرحم الراحمين أنه يثيب العاصي إذا تاب، ويبدّل سيئاته حسنات إذا أناب.

﴿٦٥﴾ ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾

ولما عادوا إلى أبيهم وفتحوا أوعية الطعام وجدوا ثمن البضاعة الذي دفعوا قد رُدَّ إليهم!! قالوا: يا أبانا، ماذا نطلب أكثر من هذا؟! وماذا نريد فوق هذا الكرم؟ هذه البضاعة والثمن معها قد ردّه العزيز علينا، فثق بوعدنا وأرسل ابنك معنا، لنكتال الطعام لأهلنا، ونحفظ أخانا ويزيدنا العزيز حِملَ بعير له؛ لأن العزيز يوسف ﷺ في الجدب يكيل لكل واحد حِملَ بعير لا يزيد عليه، وهذا يسير عليه سوف يفي به.

﴿٦٦﴾ ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

قال لهم أبوهم يعقوب: لن أتركه يذهب معكم حتى تقسموا لي بالله العظيم أن تعيدوه لي مثلما أخذتموه، إلا أن تغلبوا جميعًا وتهلكوا كلكم فتعذروا، فلما أقسموا له وأعطوه المواثيق المغلظة قال: الله يشهد على ما قلنا، توكلنا عليه، وفوَّضنا إليه أمرنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

وقال يعقوب لأبنائه يوصيهم إذ خاف عليهم من العين لكثرتهم وهيئتهم: يا أبنائي، إذا دخلتم مصر أو دخلتم دار العزيز فلا تدخلوا جميعًا من باب واحد، ولكن تفرقوا على الأبواب وأنا أوصيكم، والمقدر هو الله وحده، فلا راد لقضائه، لكن نأخذ بالأسباب ونتوكل على مسبب الأسباب، فعليه نتوكل وعليه يعتمد كل مؤمن ويثق به كل موحِّد.

﴿٦٨﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ولما دخل أبناء يعقوب من عدة أبواب كما أوصاهم أبوهم، ما كان يعقوب يدفع عنهم شيئًا من قضاء الله المحتوم، ولكن كان في نفس يعقوب خوف عليهم من العين، وإن يعقوب لصاحب علم نافع وبصيرة نافذة، وفقه جليل مما أوحاه الله إليه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون عواقب الأمور، وأسرار الأشياء ومقاصد الأحكام، وإنما يعلم ذلك يعقوب ﷺ وأمثاله.

﴿٦٩﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ولما دخل أبناء يعقوب إخوة يوسف على أخيهم يوسف، ضم أخاه بنيامين إليه واختص به عنهم، وقال له سرًا: أنا أخوك من أمك وأبيك، فلا تخف ولا تحزن ولا يصيبك غم بسبب ما صنعوا بي، فالله معنا والعواقب حميدة، واكتم أمرنا فسوف يلطف بنا الله ويتولانا عز وجل.

﴿٧٠﴾ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾

فلما جهز يوسف إخوانه للعودة إلى أبيه وحمَّل جمالهم بالطعام، أمر العمال بوضع المكيال في كيس أخيه (بنيامين) من حيث لا يدري أحد!! فلما انطلقوا عائدين صاح صائح يقول: يا أصحاب العير المحمّلة، إنكم لسارقون. والمعنى قفوا لكشف حقيقة ما جرى.

﴿٧١﴾ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾

قال أولاد يعقوب وقد عادوا إلى موضع الصوت: ما الذي تفقدونه وتتهموننا بسرقته؟

﴿٧٢﴾ ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾

قال المنادي من جهة العزيز: لقد فقدنا مكيال الملك، ولمن أحضره لنا جائزة مقدارها حِملُ بعير من الطعام، وأنا أضمن له ذلك وأتكفَّل به جزاء دلالته على المكيال.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾

قال إخوة يوسف: أنتم تعلمون علم اليقين مما رأيتموه منا وعرفتموه من حالنا ما أتينا من أرضنا إليكم لعمل الفساد من سرقة ونحوها، وليس من أخلاقنا أن نسرق فنحن من بيت ديانة وأمانة وصيانة.

﴿٧٤﴾ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾

قال عمّال يوسف لأبناء يعقوب: فما هي عقوبة السارق عندكم إذا ظهر كذبكم وتبيّن أنكم سارقون؟ ليظهر الحكم على ألسنتهم ليكون أقطع للخصام.

﴿٧٥﴾ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

قال إخوة يوسف: جزاء السارق عندنا إذا وُجد المسروق في متاعه أن يسلم بما سرق إلى من سرقه؛ ليكون رقيقًا عنده، فيؤخذ مقابل ما سرق، فجزاء السارق الاسترقاق، وهذا جزاء لكل من ظلم نفسه وغيره فسرق.

﴿٧٦﴾ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

وعادوا بإخوة يوسف إلى يوسف وبدأ يوسف يبحث بنفسه في أمتعتهم قبل متاع شقيقه إبعادًا للتهمة وإثباتًا للحجة، وهو من حسن التدبير وذكاء التصرف، حتى انتهى إلى وعاء أخيه فاستخرج الإناء منه، وهذا التيسير من الله، تدبير

محكم ليوسف ليصل إلى أخذ أخيه، وهو مما علّمه الله يوسف، وليس له أن يأخذ أخاه وَفْقَ شريعة ملك مصر؛ لأنه ليس عندهم أخذ السارق وتملكه مقابل ما سرق، لكن الله أراد أن يتم هذا الأمر فهيأ أسبابه، فجعلهم يحتكمون إلى شريعة إخوان يوسف ليأتي الحكم على ألسنتهم، وينتهي الجدال، والله يرفع مكانة من أراد من خلقه، كما رفع مكانة يوسف على إخوانه، وفوق كل صاحب علم أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى الله - تعالى - فله العلم الكامل المطلق - سبحانه - عالم السرِّ وأخفى، وعالم الغيب والشهادة، فعلى كل عالم أن يتواضع ففوقه أعلم منه.

﴿٧٧﴾ ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

وقال إخوة يوسف: إن كان أخونا هذا قد سرق فقد سرق قبله أخٌ له شقيق - يقصدون يوسف ﷺ - كذبًا منهم على يوسف، فأخفى يوسف ما سمعه من الكلام في نفسه، وأعرض عن هذا الخبر، وقال في نفسه: أنتم أسوأ منزلة ممن اتهمتم، فأنتم عققتم الوالد، وضيَّعتم الأخ، وعصيتم الخالق، والله أعلم بما تصفون من الزور والكذب والخداع، لا تخفى عليه خافية.

﴿٧٨﴾ ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

فقالوا في انكسار وتذلل: يا أيها العزيز: إن أخانا هذا الذي أخذته له والدٌ كبير طاعن في السن، وهو متعلق بهذا الابن ولا يستطيع أن يفارقه، فاجعل واحدًا منا بدلاً من بنيامين ليكون عِوَضًا عنه في السرقة، إنا نراك من أحسن الناس في الأخلاق والتعامل، وقد أحسنت معنا وأكرمت نزلنا.

﴿٧٩﴾ ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾

قال يوسف: أعوذ بالله وأستجير به وأعتصم أن أظلم أحدًا فآخذه دون ذنب؛ ولذلك لن آخذ إلا من سرق مكيالي على حكمكم أنتم، وهذا هو العدل والإنصاف، وهو على قاعدة: ولا تزر وازرة وزر أخرى.

﴿٨٠﴾ ﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمُونِي فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴾

فلما أيس أبناء يعقوب من إجابة يوسف لهم على ما سألوه من ترك بنيامين وأخذ أحدهم مكانه، انفصلوا عن الناس وتشاوروا فيما بينهم، فقال أكبرهم سنًا: ألم تذكروا أن أبانا يعقوب قد استحلفنا وأخذ علينا الأيمان المغلظة بأن نعيد بنيامين إلا أن نُغلب جميعًا، وأنتم تعلمون ما فعلنا بيوسف من قبل بالغدر، فالآن اجتمعت مصيبة على أبينا إلى مصيبة، فلن أفارق مصر حتى يأتيني السماح من أبي بالخروج منها والعودة إليه، أو يختار الله لي إما يأذن أبي، أو العودة بأخي، أو الموت، والله خير من حَكَم في كل قضية، وَعدلَ في كل أمر، وفَصلَ في كل خلاف.

﴿٨١﴾ ﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴾

عودوا إلى أبينا يعقوب وأخبروه بما صار، واكشفوا له حقيقة ما وقع، فابنه بنيامين قد سرق مكيال الملك، ونحن نشهد على ذلك، فقد رأينا المكيال بأعيننا في وعائه، ولم يكن عندنا علم من الغيب أنه سوف يسرق يوم عاهدنا أبانا على ردّه إليه، فالأمر خرج من أيدينا وهو فوق طاقتنا، والذنب ذنب أخينا لا ذنبنا.

﴿٨٢﴾ ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

واسأل يا أبانا أهل مصر ومن رافقنا في القافلة ممن شهد القصة إذا كنت متهمًا لنا، ووالله إننا صدقنا فيما قلنا، ولكن أقول من سبق منه الكذب لا يُصدَّق، وإن صدق!!.

﴿٨٣﴾ ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

فلما عادوا إلى يعقوب وأطلعوه على ما جرى قال: ليس الأمر كما قلتم!! بل زيَّنت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء مكيدةً أخرى دبرتموها وأنتم أهل المكائد، وقد سبق منكم المكيدة مع يوسف، فلا حيلة لي إلا الصبر الجميل الذي لا جزع فيه ولا شكوى إلا لِلَّه، عسى الله - وهو الرحمن الرحيم - أن يرحم ضعفي وشيبتي، وأن يردَّ أبنائي الثلاثة وهم: يوسف وشقيقه وأخوهم الكبير الذي تخلَّف من أجل أخيه، إن ربي عليم بحالي وسؤالي، حكيمٌ في قضائه لا يُتهم، وفي حكمه لا يظلم، وفي تدبيره وتصريف شؤون خلقه، وفي الآية: أنه كلما اشتد الخطب قَرُب الفرج، وكلما تكاثف ليل المحنة بدا الصباح، فكن أوثق ما تكون بالفرج آيس ما تكون منه.

﴿٨٤﴾ ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

وأعرض يعقوب عن أبنائه وازداد همُّه وغمُّه وكثر أسفه وبكاؤه، وقال: يا حسرتا على يوسف، وأبيضَّت عيناه من كثرة البكاء وشدة الحزن وكثرة السهر، وذهب سوادهما، ولكنه كتم ذلك تصبرًا لأمر الله وتجلُّدًا أمام الشامتين، وانظر كيف عاد به الحنين والذكرى إلى يوسف وحده؛ لأنه نكئت جرحه القديمة في يوسف بذهاب أخيه.

﴿٨٥﴾ ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾

فقال بنوه: تالله إنك لا تزال تتذكر يوسف دائمًا وتعيد وتبدي في خبره ويشتدُّ حزنُك عليه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك فعلاً، فتصبَّر فما مضى قد انقضى، وما فات مات.

﴿٨٦﴾ ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال يعقوب يجيب أبناءه: أنا لا أرفع شكواي إلا إلى ربي، ولا أخبر بهمي وحزني إلا إلهي وحده، فهو كاشف الضر والبلاء، الذي يأتي بالسراء بعد الضراء، ويعقب بعد الشدة رخاء، وأنا أعلم من قرب رحمة الله وفرجه ولطفه ويسره ما لا تعلمون؛ لثقتي بربي وتمام معرفتي بجلاله وكماله وكرمه وحسن نواله.

﴿٨٧﴾ ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

قال يعقوب لأبنائه: يا أبنائي، عودوا إلى مصر فتتبعوا أخبار يوسف وأخيه ولا تقطعوا رجاءكم من رحمة الله، فما يقطع الرجاء في رحمة الله إلا من جحد قدرته، وكفر به، فينبغي على الإنسان حسن الظن بربه، بل عليه كلما اشتد الكرب وادلهم الخطب أن يكون أكثر رجاء وأملاً في رحمة الله وقرب فرجه.

﴿٨٨﴾ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

فعادوا إلى مصر ودخلوا على يوسف وقالوا: يا أيها العزيز، أصابنا وأهلنا الجدب والقحط، وانقطع عنا الغيث فلا زرع ولا ضرع، ومعنا أثمان رديئة قليلة، فزد في الكيل على عادتك وهب لنا من الطعام بلا ثمن؛ كرمًا منك، فإن الله يثيب من تفضَّل على خلقه وأعان المحتاجين من عباده. وفيه ما كان عليه الأنبياء من شظف العيش والفقر، فهؤلاء

أبناء يعقوب ﷺ وهذه حالتهم من العوز والحاجة، وهذا من هوان الدنيا على الله حيث يعطيها أعداءه ويمنعها أولياءه.

٨٩ ﴿ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾

فلما سمع يوسف كلام إخوانه دخلته الرحمة بهم والإشفاق على أبيه والحنين إلى أهله، وقال لهم: هل تذكرون الذي فعلتموه بيوسف وأخيه من الأذى في حالة جهلكم، وفيه إعذارهم بالجهل كرمًا من يوسف؛ لأنه كريم، والكريم يلتمس الأعذار، ويقيل العثار.

٩٠ ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

قال إخوة يوسف له: هل أنت يوسف، فقد شكّوا ولم يتحققوا؛ لأنه لا يعرف ما فعلوه بيوسف إلا الله ثم يوسف، فقال يوسف: نعم أنا يوسف وهذا شقيقي قد رحمنا ربنا واختصنا بفضله، فجمع بيننا بعد الفراق، إنه من يتق الله بفعل المأمور، وترك المحذور، ويصبر على المقدور، فإن الله لا يضيع ثواب المحسن في الدنيا والآخرة؛ فيجعل العاقبة والعز والنصر له في الدنيا والفوز والفلاح والنعيم في الآخرة.

٩١ ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾

قالوا: تالله لقد فضّلك الله علينا ورفعك بالعلم والحلم والفهم فأنت أعلى منا منزلة في أمور الدنيا من الملك والمجد والجاه، وفي أمور الآخرة من الصدق والتقوى وخصال الخير، ونحن كنا خاطئين بما تعمدناه من الأذى بك وبأخيك، وما فعلنا من عقوق الوالد وقطيعة الرحم وعصيان الرب سبحانه.

٩٢ ﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

قال لهم يوسف بمنطق الكريم الحليم: لا لَوْم عليكم، اليوم غفر الله لكم ما فعلتم وسامحكم فيما اقترفتم، فهو أرحم الراحمين لمن تاب؛ لأنه يمحو سيئاته ويعظم حسناته، فيوسف عفا عن حقه، وسأل الله أن يغفر لهم الذنب، فيا له من حلم فاق كل حلم، فيوسف في العفو إمامٌ لمن أتى بعده، وبمثل هذا الخلق يرتفع العبد عند ربه، وينال المجد والسؤدد في الدنيا، والفوز والفلاح في الآخرة.

٩٣ ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

وعلم يوسف بذهاب بصر أبيه يعقوب من كثرة البكاء والحزن عليه، فقال لإخوانه: عودوا إلى أبي وخذوا قميصي الذي ألبسه واطرحوه على وجه أبي فسوف يعود بصيرًا بإذن الله، وتعالوا بأهلكم جميعًا؛ ليجتمع الشمل، ويسعد الأهل، ويفرح الكل برحمة الله عز وجل.

٩٤ ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾

فلما عادت القافلة من مصر ومعهم قميص يوسف قال يعقوب لأهله إني لأجد ريح يوسف لولا أن تسفهوا في رأيي وتسخروا مني، فهو ذكر ما وجد واحتاط لنفسه؛ حتى لا يسخر منه أحد، وهذه معجزة نبوية ليعقوب، وإذا لم تحتمل أذهان البشر عظمة الخبر لضعف النظر استُحسن التعريض.

﴿٩٥﴾ ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴾

قال أهل يعقوب له: تالله إنك مستمرٌ على خطئك القديم في التولّه والتعلق بيوسف وقد انقطع خبره وخفي أمره وأُهمل ذكره.

﴿٩٦﴾ ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

فلما وصل المبشر إلى يعقوب طرح قميص يوسف على وجه يعقوب فأصبح مبصرًا بإذن الله بعدما عمي من البكاء والحزن، فامتلأ البصر بالنور، والقلب بالسرور والبيت بالحبور، وقال يعقوب لمن عنده: أما أخبرتكم أن عندي علمًا من الله لا تعلمونه، وذلك من فضل ربي ورحمته.

﴿٩٧﴾ ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾

فقال أبناء يعقوب ليعقوب يا أبانا اطلب إلى ربنا أن يغفر ذنوبنا ويستر عيوبنا ولا يؤاخذنا بما فعلنا، فنحن معترفون بالذنب، مقرون بما فعلنا بيوسف.

﴿٩٨﴾ ﴿ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قال يعقوب لأبنائه: سوف أطلبُ من ربي أن يغفر ذنوبكم، ويتجاوز عن سيئاتكم فإنه كثير الغفران لمن أكثر من الذنوب، يعود بالرحمة على من أناب، ويسدل عفوه على من تاب، وفيه طلب دعاء الرجل الصالح الحاضر وتوخي أوقات الإجابة، فإنه لم يُجبِهم في الحال بل تحرى وقتًا آخر.

﴿٩٩﴾ ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

وذهب يعقوب وأهله إلى يوسف في مصر، فلما دخلوا على يوسف ضم يوسف إليه أبويه إكرامًا وتبجيلاً، وقال: ادخلوا- بمشيئة الله - أرض مصر وأنتم آمنون لا تخافون من كرب ولا تخشون من خطب، فقد انتهت المخاوف، وانصرمت الأحزان برحمة الرحمن وأمان الملك الديان.

﴿١٠٠﴾ ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

وأجلس يوسف أباه وأمه على سرير الملك الذي يجلس عليه إكرامًا وتوقيرًا ومحبةً وتقديرًا، وحيَّاه أبوه وأمه وإخوته الأحد عشر بالسجود له تبجيلاً وإعزازًا لا عبادة وخضوعًا، وهذا في شريعتهم جائز وهو محرمٌ في الإسلام، فلا يُسجد لغير الله وحده، وقال يوسف لأبيه: قد وقعت الرؤيا وتحققت بهذا السجود الذي رأيته في طفولتي، فقد جعله ربي صدقًا، ومنَّ عليّ وأكرمني بإخراجي من السجن إلى قصر الملك ومن خلف القضبان إلى المجد والسلطان، وأتى بكم من البادية حيث الجدب والقحط إلى مصر حيث رغد العيش وكثرة الخير من بعد أن أفسد الشيطان صلة القربى بيني وبين إخواني، وانظر لكرمه ﷺ حيث لم يعرض بإخوانه؛ لأن المجلس مجلس عفو وصفح ومسامحة، بل جعل الأمر مشترك والذنب كله ذنب الشيطان، وهذا شأن الكريم يتناسى الإساءة ويذكر الإحسان، ويتغاضى عن الزلة ويحفظ الجميل، إن الله لطيف في التدبير، يوقع المقدور بأيسر الأمور، إذا شاء أمضى القضاء على الأولياء، وجعل رحمتهم في الابتلاء، وهو عليم بمصالح العباد، حكيم في قضائه وشرعه وخلقه وصنعه.

﴿١٠١﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾

ثم قال يوسف يدعو ربه: يا ربِّ قد أعطيتني من العلم النافع مع فهم الحجة والفصل في الحكم، يا بديع السموات والأرض، أنت الذي تتولى أحوالي وتسمع أقوالي وترى أعمالي، أسألك أن تتوفاني على الإسلام، وتلحقني بالصالحين الأولياء، من المرسلين والأنبياء، والعلماء والشهداء والأصفياء.

﴿١٠٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾

هذا الذي أنزلناه إليك يا محمد هو من أخبار الغيب، لا يؤخذ إلا عن طريق الوحي، وما كنت أنت حاضرًا مع إخوة يوسف حين دبَّروا له المكيدة لإلقائه في البئر واحتالوا عليه وكادوا له كيدًا عظيمًا، فأنت غائب عن هذه القصة، ولكن أخبرناك بها، وهذا يدل على نبوتك وأن ما يأتيك وحيٌ من عند الله، فلماذا يشك شاك في رسالة محمد ﷺ بعد هذه الشواهد؟

﴿١٠٣﴾ ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

وما أكثر الكفار بمُصَدِّقِيك أيها النبي المختار مع وضوح دليلك وصحة نبوتك، فمهما حرصت على إيمانهم فلن يؤمنوا، فلا تحزن عليهم ولا تكُ في ضيق مما يمكرون.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

وأنت - يا محمد -، لا تطلب من قومك أجرة على دعوتك لهم إلى الهداية، فالذي أنزله الله عليك إنما هو لهداية البشر جميعًا لا لطلب ثواب منهم أو مصالح، فالله هو الغني الحميد، وإنما الواجب على الناس الامتثال وحسن الاتباع والمسارعة في الاستجابة.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾

وكم من علامة واضحة ودليل قاطع على وحدانية الله وعظمته يراها الناس ويشاهدونها ثم لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها، ولا تزيدهم إيمانًا، ففي كل شيء لله آية على حكيم صنعه وحسن إبداعه وعظيم قدرته - جل في علاه - ولكن المعاصي تمنع القلب من الجولان في فضاء التوحيد.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

وما يقرُّ الكفار ولا يعترفون بأن الله خالقهم ورازقهم ومستحق للعبادة إلا ويشركون بعبادة الأصنام والأوثان، فهم يعترفون بالربوبية وينكرون الألوهية، فأثبتوا لله الخلق، ونفوا عنه توحيده بالعبادة!!

﴿١٠٧﴾ ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

هل عند المشركين أمان من الله بعدم إنزال عذاب عام مباغت عليهم، أو تأتيهم القيامة فجأة فهم بين أخذ مقدم في الدنيا بعقاب، أو موت وبعده حساب وعذاب، وهم في غفلة عما يُراد بهم لا يشعرون ولا يحسون، ومال لجرحٍ بميتٍ إيلامُ.

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

قل -أيها النبي- للناس: هذا منهجي وهذه طريقتي، أدعو إلى عبادة الله وحده وإخلاص الطاعة له وإفراده بالوحدانية على علم متين، وهداية ويقين، وحجة قاطعة ودليل ساطع، أنا ومن سار على طريقتي واقتدى بي، مع تنزيه الله عن الشركاء والأنداد، وتقديسه مما لا يليق به، ولا أشرك مع الله غيره، ولا ألحد في أسمائه وصفاته، فمعالم دعوته ﷺ ودعوة من اتبعه إخلاص العبادة لله، والبدء بتوحيده وتنزيهه عن الشرك وكل ما لا يليق به، وطلب العلم والعمل وتعليمه، والصبر على أذى الناس؛ فهذه الدعوة أربع مراتب علم وعمل، وتعليم وصبر، وهي الربانية لمن أرادها، ومن حققها فقد نال أشرف المراتب، وأعظم المنازل بعد النبوة.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

وما أرسلنا من قبلك - أيها الرسول - إلى البشر إلا رجالاً منهم؛ ليكونوا أعلم بهم من غيرهم، ينزل الله عليهم الوحي، وهم من أهل الحاضرة الأتم خلقًا والأرجح عقولاً والأعرف بما يصلح للناس. فأخرجت الآية من الرسل الملائكة والجن والنساء وأهل البادية، فإذا أرسل الله الرسل صدَّقهم قوم فنجوا، وكذَّبهم آخرون فهلكوا، أفلم يمش الكفار في الأرض فيبصروا عاقبة من كذَّب رسل الله كيف دمَّرهم وأوقع الهلاك بهم، وثواب الآخرة للمتقين في الجنة أفضل من الدنيا بما فيها من متاع ومال وجاه وقوة وزينة، وهذا الثواب لمن اتقى ربه وعمل بشرعه وأطاع رسوله ﷺ، فلماذا لا يعتبر معتبر، ويتفكَّر متفكر في مصير الناجين والهالكين فيحذر.

﴿١١٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

ولا تعجل - أيها الرسول - بسؤال الهلاك على من كذَّبك، فإن الرسل قبلك صبروا، وكان يتأخر عنهم النصر لحكمة أرادها الله؛ حتى إذا يأس الرسل من تصديق قومهم وأيقنوا أن قومهم قد كذَّبوهم ولا رجاء في صلاحهم ولا أمل في إيمانهم جاء الرسلَ نصرُ الله عند شدة الكرب، فنجى الله من شاء ممن آمن بالرسل واتبعهم، ووقع بأسه الشديد وعذابه الأكيد بالعتاة المردة والمجرمين الفجرة، وفي الآية تسلية للرسول ﷺ وحسن الظن بالله ولو تأخر نصره، فإن ما عنده قريب، وإن الفرج يحصل عند اليأس.

﴿١١١﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

لقد كان في أخبار المرسلين وأنباء الأنبياء التي ذكرها الله لرسوله ﷺ عظة عظيمة لأهل العقول السليمة، ودروس كريمة لأرباب الفطر القويمة، وليس القرآن كلامًا مكذوبًا مختلقًا ملفَّقًا، ولكنه خبر صحيح ووحي صريح منزَّل من الله على رسوله ﷺ، مصدّق لما سبقه من الكتب السماوية، وفيه تبيان ما يحتاج إليه البشر من عقائد وأحكام وعلم الحلال والحرام، وآداب وأخلاق، ففيه الخبر الصادق، والحكم العادل، والآية المحكمة، والخُلق الفاضل، والأدب الجم، والموعظة الحسنة، والقصة الجميلة. وفيه إرشاد من الغي، وتحذير من الضلال، ورحمة لأهل الهدى؛ يهتدون بها ويسعدون بها في الدنيا والآخرة، وكل من آمن بهذا القرآن نال من خيره وبركته وهداه ونوره ورحمته بحسب إيمانه واحتفائه وعنايته وإقباله على القرآن.

مدنية

# سورة الرعد

ترتيبها ١٣ آياتها ٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

الحروف المقطعة في أول السور نَكِلُ علمها إلى علام الغيوب، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن والتحدي به وهذه آيات القرآن شريفة القدر، عالية المنزلة، عظيمة النفع، وهو القرآن المنزل على رسولنا ﷺ وهو الحق الثابت لا كما قال الكفار: إنه سحر أو شعر أو كهانة، ومع صدق القرآن وثبوت نزوله فأكثر الناس لا يصدقون به ولا يهتدون بهداه، ولا ينتفعون به.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾

الله وحده الذي رفع السموات السبع الشداد بقوته وقدرته وحكمته من غير عمد كما يراها الناس، فهي بناء عظيم هائل، وسقف مرتفع، يمسكها الله دون أن تعتمد على أعمدة، وبعدما بناها - سبحانه - استوى على عرشه استواء يليق بجلاله، وذلل بقدرته الشمس والقمر، لينتفع البشر من الإضاءة والنور، واختلاف الليل والنهار والفصول وإنضاج الثمار، ومعرفة الحساب والسنين، كل منهما يدور في مجراه إلى يوم القيامة بحساب دقيق، يصرف الله أمور الدنيا والآخرة، فكل شأن يجري في الكون بمشيئته وإذنه - جل في علاه -. يبيّن الله - سبحانه - الأدلة على وحدانيته والشواهد على قدرته سواء من الآيات الكونية أو الشرعية الدالة على أنه الله الذي لا إله إلا هو ولا رب سواه ولا معبود بحق غيره، فعسى أن تصدقوا بوعده ووعيده، وتؤمنوا بلقائه فتعبدوه وتشكروا له وتطيعوا أمره وتجتنبوا نهيه.

(٣) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾

وهو وحده - سبحانه - الذي وسَّع الأرض وبسطها وجعلها مهادًا للعباد وفراشًا للمعاش، وصيّر فيها جبالاً شواهق تمسكها وتمنعها من الاضطراب، وصيَّر فيها أنهارًا تشربون وتنتفعون منها، وتكون حياة وجمالاً لها، وصيَّر فيها من أنواع الثمار، ومختلف الأشجار وسائر الأزهار ما يبهج العين ويسر النفس ويخلب اللب، فسبحان من خلق فأبدع، وأحسن فيما صنع، وفصل فيما شرع، وصيّر الليل يغطي النهار بظلمته، ففي هذه المخلوقات آيات ودلالات لمن يفقه العظات وتنفع فيه البراهين والمعجزات فيؤمن ويصدق.

(٤) ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

وفي الأرض قطع ومساحات يجاور بعضها بعضًا، منها الخصب والجدب، والطيب والسبخ النكد، ومنها الصخرية والترابية بألوان شتى وأشكال مختلفة، وفي الأرض الرخاء الطيبة الخصبة حدائق من أعناب دانية القطاف، وزروع بمختلف الثمار، ونخيل باسقات لها طلع نضيد، تجتمع في مكان واحد وفي تربة واحدة، وتشرب من ماء واحد، ولكنها تختلف ثمارها في طعمها ولونها وحجمها من حلوٍ وحامض، وأبيض وأسود، وأحمر وأخضر إلى غير ذلك من

اختلاف المذاقات وتعدد المطعومات، وفي هذا دلائل واضحة وآيات بيّنة على قدرة القدير وحكمة اللطيف الخبير وإبداع العلي الكبير لمن كان له قلب يعقل فيهتدي لطاعة ربه والإيمان به.

٥ ﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

وإن كنت تعجب - أيها الرسول - من عدم إيمان الكفار برسالتك مع ظهور الأدلة على صدق ذلك فأعجب من ذلك قول الكفار: هل إذا متنا وأصبحنا ترابًا نعود إلى الحياة من جديد؟ استبعادًا منهم واستنكارًا؛ هؤلاء المكذبون الكفرة هم الجاحدون لأدلة الربوبية وبراهين الألوهية، فجزاؤهم أن تكون السلاسل من النار في أعناقهم يوم العرض على ربهم، وهم ماكثون في النار خالدين فيها، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يخرجون من دار العقاب، لا يموتون فيرتاحون، ولا يحيون فيتنعمون، بل عذاب دائم وعقاب مستمر.

٦ ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

يتعجل المكذبون العذاب قبل الإيمان الذي معه الأمان، فهم يريدون تقديم العقوبة قبل استجابتهم للرسالة، وهم لو اعتبروا بمن قبلهم ممن عذبهم الله لتكذيبهم لآمنوا وصَدَّقوا، وإن ربك - أيها النبي - لكثير الغفران لمن تاب وأناب من خطاياه من البشر مع كثرة ظلمهم وفجورهم، فهو رحيم لا يعاجلهم بالعقوبة، وهم يصدّون عن التوبة والإنابة، والله شديد العقاب لكل من أصرَّ على ذنبه واستكبر عن الإيمان وكفر بالرحمن.

٧ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴾

ويقول الكفار للنبي: لماذا لم يأت بمعجزة ظاهرة محسوسة كعصا موسى وناقة صالح ونحوها، وهذا ليس بيد الرسول ﷺ إنما ذلك لله وحده، ومهمة الرسول ﷺ البلاغ المبين والتحذير الشديد من عذاب الله، ولابد لكل أمة من رسول يرشدهم إلى الإيمان بالله وهجر الشرك به.

٨ ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴾

الله يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها، أذكر هو أم أنثى؟ وهو وحده الذي يعلم أشقي هو أم سعيد؟ ويعلم ما تنقصه الأرحام فيسقط بالإجهاض، أو يولد قبل تسعة أشهر، ويعلم ما يزيد حمله على التسعة، وكل شيء يقدره الله بمقدار من الزيادة والنقصان لا يتعداه، فكل مدة محسوبة بقضاء سابق.

٩ ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾

الله عالم بما غاب عن الأبصار، وما تشاهده محيط بما يراه الناس وما لا يرونه، مطلع على السر والعلن، الكبير في ذاته وأسمائه وصفاته، عظيم قدره قوي قهره، حكيم في نهيه وأمره، العالي على جميع مخلوقاته بذاته وقدرته وقهره.

١٠ ﴿ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾

يستوي عند الله من أخفى قوله ومن جهر به، ويستوي من ستر عمله في ظلمة الليل ومن أظهره في وضح النهار، فالغيب عنده قبل العيان، والسرُّ عنده كالجهر، والخافي لديه كالظاهر، وسع كل شيء رحمةً وعلمًا.

١١ ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴾

لله تعالى ملائكة يتعاقبون على الإنسان من أمامه ومن خلفه، يحفظونه بأمر الله ويحصون عمله من حسنٍ وسيئ، إن الله لا يبدل نعمةً وهبها لقوم حتى يبدلوا طاعته بمعصيته، فَيُبدِّل السراء إلى ضراء، والنعماء إلى بلاء، وإذا أراد الله

بطائفة بلاءً أو فتنة فلا راد له ولا مفرَّ من قضائه، وليس لهم والٍ يتولى أمرهم فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه، بل الله وحده يتولى أمور العباد.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾

وهو - سبحانه - الذي يريكم من قدرته البرق والنور اللامع بين الغمام، فتخافون من الصواعق أن تهلككم، وتطمعون في الغيث، وهو الذي يحمل الغمام بالماء الذي ينزل عليكم بالبركات، ويكون سببًا للخيرات، فكما تخافون الصواعق وتطمعون في الغيث فخافوا وعيده بالعذاب، واطمعوا في وعده بالثواب؛ بعمل الصالحات وهجر المنكرات.

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾

والرعد يسبح بحمد الله تسبيحًا بخضوع وانقياد، فسبحان من ينزهه -حتى الرعد- من العيوب، ويثني عليه بالمحامد، والملائكة تسبح الله وتقدِّسه وتثني عليه وتشكره خوفًا من سطوته وهيبته وعظمته، والله وحده الذي يرسل الصواعق المحرقة تسحق وتمحق وتمزق من يشاء من خلقه، ومع هذه الآيات الباهرات تجد الكفار يجادلون بالباطل في صفات الله وآياته ورسالاته، ويشكون في قدرته ويخاصمون رسله، والله شديد الحول والقوة والبطش بأعدائه، قوي الأخذ لهم.

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

لله - سبحانه - وحده الدعوة الصادقة إلى توحيده وإخلاص العبادة له وإفراده بالطاعة، وهي دعوة الرسل إلى (لا إله إلا الله) فلا معبود بحقٍ سواه، ولا إله غيره، وأما ما سواه من الأوثان والأصنام فلا تجيب دعوة أحد ولا تشعر بأحد ولا تفرِّج كرب مكروب، ومثلهم مثل العطشان المشرف على الهلاك الذي يمد يده إلى الماء من بعيد؛ ليصل إلى فمه الماء فلا يصل، فعبَّاد الأصنام محرومون من نفعها كحرمان العطشان نفع الماء البعيد، وما طلب الكفار من أصنامهم إلا في غاية من البعد عن الصواب، وضلال عن الهدى؛ لأن المشرك أعمى القلب مطموس الفطرة.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾

ولله وحده ينقاد ويخضع ويذعن كل مخلوق في السموات والأرض؛ فالمؤمن يخضع له حبًا وطواعية، والكافر يخضع رغمًا عنه وقهرًا له، فهو معرض عن طاعته، وفطرته تدعوه لعبادته، وتنقاد لعظمته، وتخضع لجبروته ظلال المخلوقات، فتتحرك بإرادته أول النهار وآخره، فسبحان من قهر كبرياؤه أعداءه، وهدى لمحبته أولياءه.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

قل - أيها النبي - للكفار: من الذي خلق السموات والأرض ودبّر أمرهما وتكفَّل برزق من فيهما؟ قل: هو الله وحده الخالق الرازق المدبر، وأنتم تعترفون بهذا، فلماذا تعبدون غيره وتشركون به سواه مع العلم أنهم لا ينفعون أنفسهم بجلب الخير لها، ولا يدفعون عنها الضر، فكيف ترجون منهم جلب خير لكم أو دفع شرٍّ عنكم، قل: هل يستوي الأعمى الذي هو كالكافر، والبصير الذي هو كالمؤمن؟ أم هل تستوي عندكم الظلمات وهي الكفر، والنور وهو الإيمان؟ فلا سواء، فالبصير أفضل وأكمل من الأعمى، وكذلك المؤمن بالنسبة إلى الكافر، والنور أهدى وأحسن من الظلمات، وكذلك الإيمان بالنسبة إلى الكفر، أم إن هؤلاء الأنداد والأضداد الذين عبدهم المشركون من دون الله خلقوا مخلوقات فتشابهت في صورتها وصفاتها بمخلوقات الله فاعتقد الكفار أنها تستحق العبادة فعبدوها، وهذا

ليس موجودًا، فآلهتهم المزعومة لم تخلق شيئًا فهي مخلوقة، فكيف تكون خالقة؟! فقل لهم - أيها الرسول -: الله موجد كل شيء من العدم وخالقه ومصوره ومبدعه، فهو المستحق للعبادة وحده، وهو الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن حقه أن لا يُشرك به غيره، وأن يُفرد بالطاعة، وهو الذي قهر سواه بجبروته، وأذلَّ غيره بعظمته وقوته.

﴿١٧﴾ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾

ومثل الحق الذي هو الإيمان، والباطل الذي هو الكفر مثل ماء أنزله الله من السماء، فجرت به الأودية على حسب اتساعها وضيقها، فمنه ماء عذبٌ صاف نافع للبلاد والعباد، ومنه غثاء عالٍ لا نفع فيه ولا فائدة، وضرب الله مثلاً آخر: وهي المعادن التي يوقد عليها الناس في النار للزينة كالذهب والفضة، أو للمنافع كالنحاس، فيخرج منه خبث لا نفع فيه ولا فائدة، فالنافع المفيد هو مثل الحق. وما لا فائدة فيه ولا نفع هو الباطل، فتجد الباطل كغثاء الماء يذهب سدى، وكذلك خبث المعادن، وأما الحق فتجده كالعذب الزلال الصافي من الماء، وكذلك ما يبقى في الأرض من المعادن الغالية النفيسة، ومثلما بيَّن الله هذا المثل يضرب الله الأمثال للناس ليتضح الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، والهدى من الضلال، فضرب الأمثال للفهم، أدعى لظهور المعنى، وأثبت في القلب، وهو من الحكمة في التعليم.

﴿١٨﴾ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

لمن أطاع الله واتبع رسوله وعمل بما يرضيه واجتنب ما يسخطه جنات النعيم مع الفوز العظيم والمقام الكريم، والذين لم يؤمنوا بالله ولم يتبعوا رسوله ويهتدوا بهداه لهم نار جهنم، ولو كانت الدنيا لهم بما فيها من غالٍ ونفيس وضِعفُ ذلك لدفعوه فداءً لأنفسهم من العذاب، أولئك لهم سوء الجزاء على ما قدموا من كفر وتكذيب، ومقامهم في نار جهنم وبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم، فهم بقبح ما فعلوا هيؤوا لهم أقبح مقام وأشد نكال في السلاسل والأغلال والهوان والأهوال.

﴿١٩﴾ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

هل الذي يعلم ويتيقن ويصدق بما أنزل الله عليك - أيها النبي - من الوحي؛ كالأعمى الذي كذب برسالتك وعصى أمرك؟ إنما ينتفع بالموعظة أهل العقول الراجحة والفطر السليمة، فهم أسرع الناس استجابةً، وأعظمهم تصديقًا للحق.

﴿٢٠﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾

هؤلاء المؤمنون يؤمنون بما عاهدوا الله عليه من القيام بحقوقه وحقوق خلقه خير قيام، ولا ينكثون العهود الملزمة المؤكدة بالغدر والاحتيال، بل يؤدونها بأمانة. ويدخل في ذلك العبادات والمعاملات وسائر أنواع الطاعات والعقود والعهود والأيمان والنذور.

﴿٢١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾

وهم أهل صلة لمن أمرهم الله بصلته من برٍّ والدين، وصلة رحم، وكفالة يتيم، وإعانة فقير، وإعطاء بائس، ويحذرون عذاب ربهم، ويخشون عقابه بعمل ما يرضيه واجتناب ما يكرهه، ويخافون الوقوف عند ربهم يوم الحساب؛ حذرًا من مناقشتهم فيما فعلوا وعدم غفران ما اقترفوا، وإحباط ما عملوا، فهم على حذر وإشفاق.

﴿٢٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾

وهم صابرون على أداء المأمور واجتناب المحذور، والمر من المقدور، يطلبون ما عند الله من أجور، مع أداء الصلاة على أكمل وجه، فهي قرينة الصبر، ومدده ومَعينه، والناهية عن الفحشاء والمواسية على مرّ القضاء، وتصدقوا من أموالهم في الزكاة المفروضة، والنفقات المستحبة في حال الخفاء والعلن، وإذا أساؤوا أحسنوا، فإذا بدرت منهم خطيئة أعقبوها بطاعة، ويدفعون إساءة الناس بالإحسان إليهم، هؤلاء لهم المصير المحمود عند الله، والعاقبة الحسنة من الثواب الكريم، والفوز العظيم.

﴿٢٣﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾

فمصيرهم إلى جنات دائمة فهم خالدون فيها أبدًا في قرة عين وراحة بال وحسن حال وخير مآل، ومعهم لزيادة الأنس من آمن من الآباء والأزواج والذريات بنين وبنات، ولزيادة الحبور وإدخال السرور تدخل عليهم الملائكة من كل باب، تحييهم بأجمل التحايا، وأجلِّ التهاني على ما حصلوا عليه من فوز، وما نالوه من رضًا ونعيم، فهنيئًا لهم. وجعلنا الله منهم.

﴿٢٤﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾

تقول الملائكة: سلمكم الله من كل سوء، وأنالكم كل خير، وحماكم من كل مكروه؛ لأنكم صبرتم على الطاعة وعن المعصية، فنعم العاقبة عاقبتكم، وهنيئًا لكم هذا المصير الكريم، والفلاح العظيم.

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾

أما أعداء الله المكذبون به وبرسله - عليهم السلام - فهم لا يوفون بأي عهد بينهم وبين ربهم ولا بينهم وبين الناس، فهم يغدرون بعد الالتزام بالعقود، وينكثون العهود، وهم يقطعون كل حق أمر الله بصلته من الوالدين والأرحام وسائر أهل الحقوق بما فيهم الفقراء والمساكين والأيتام، ويعملون المعاصي والفواحش وأنواع الظلم التي فيها فساد الأرض وخراب الدنيا، أولئك مطرودون من رحمة الله، محرومون من جنته، ولهم مقام الذل والهوان مع الهلاك والخسران، وغضب الرحمن في النيران.

﴿٢٦﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾

الله وحده يوسع الرزق ويكثِّره ويبارك فيه لمن أراد من عباده، ويقلله ويضيّقه على من شاء من خلقه؛ لحكم عظيمة يعلمها - سبحانه - وفرح الكفار بمتاع هذه الدار، دار الفتنة والاغترار، وما نسبة الدنيا إلى نعيم الآخرة إلا شيء حقير، ووقت يسير، ومتاع منقطع قصير، يزول ويحول كلمحة الطرف فما أقل المقام في دار الأسقام.

﴿٢٧﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾

ويقول الكفار مكابرة منهم: هل أُنزل على الرسول ﷺ معجزة محسوسة ملموسة كمعجزة موسى في العصا واليد، وعيسى في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، فقل لهم: إن الله يضل من يشاء من المتكبرين المعاندين عن الإيمان، ولا يهديهم ولا تنفعهم المعجزات، فلو حصل ما طلبتم لكذبتم واستكبرتم، والله يهدي إلى الإيمان به من عاد إلى الهدى وطلب الحق، وحرص على رضوان ربه.

﴿٢٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾

والله يهدي الذين تسكن قلوبهم بذكره فتطمئن وتهدأ وترتاح، فبذكره - جل في علاه - مِنْ عَمَلِ طاعةٍ، أو ذكرٍ قوليٍ أو قلبيٍ، أو تذكر وعده ووعيده، تسكن القلوب وتستأنس، فيزيل الله عنها كل كدر ونكد وهم وغم وحزن وقلق،

ويبدلها بسرور ونور وحبور وفرح وبهجة، فأسعد الناس من داوم على ذكر الله، فهو السابق المحظوظ، والفائز الموفق طابت حياته، وحفظت أوقاته، وتعاظمت حسناته، وكُفِّرت سيئاته.

﴿٢٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾

المصدقون بالله ورسوله والعاملون بما شرع لهم قرة العين وراحة البال مع الفوز العظيم والنعيم المقيم في جنات الخلد مع عفو الله ورضوانه وكرمه وامتنانه؛ فهم في حياة طيبة في دنياهم، وفي حياة رضية في أخراهم.

﴿٣٠﴾ ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾

لما أرسل الله الرسل إلى أقوامهم بتوحيد الله وعبادته وحده، أرسلناك - أيها النبي - إلى قوم قد سبقهم أقوام من قبلهم لتتلو على أمتك القرآن، وتفقههم في العلم النافع، ولكن هؤلاء القوم يجحدون بوحدانية الرحمن، ويشركون معه غيره، فقل لهم - أيها النبي -: إن الرحمن الذي يكفر به عبدة الأوثان هو ربي وحده لا شريك له في ألوهيته وعبوديته، ولا يستحق العبادة سواه، فعليه أعتمد وأفوِّض أمري وأرفع سؤلي، وإليه أعود بالتوبة والإنابة، فيغفر ذنبي ويتجاوز عن سيئاتي ويمحو زللي، فأول الطريق توكل وآخره توبة.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

يخبر الله عن المكذبين لرسوله ﷺ والذين يطلبون آيات محسوسة مشاهدة بأنه لو كان هناك قرآن يقرأ فتزول من تأثيره وإعجازه الجبال عن أماكنها، أو تشقق منه الأرض وتفجر بالمياه، أو يحي به الموتى فيكلمون به؛ لكان المتصف بهذه الأوصاف هو القرآن الذي أُنزل عليك دون سواه، ومع هذا لم يؤمنوا به ولم يذعنوا له، فكيف يطلبون معجزة سواه وهو أعظم معجزة؟! أفلم يعلم ويتيقن المؤمنون أن الله لو يشاء لآمن أهل الأرض كلهم من غير معجزة، لأن هداية الخلق لا تتوقف على مجرد المعجزة، ولا تزال المصائب تنزل بالكفار من القتل والأسر والمحن والزلازل، أو تنزل تلك المصائب قريبًا من دارهم حتى يتم النصر لرسوله ﷺ وأتباعه على أعدائه، وهو وعد من الله أكيد، والله لا يخلف وعده.

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾

وإن كان سخر منك الكفار - أيها النبي المختار - فقد سخرت أقوام من رسلهم قبل قومك، فلست الأول في هذا الطريق، فتعزَّ وتأسَّ بمن قبلك، ولقد أمهل الكفار ثم أخذهم بالعقاب الشديد، فذاقوا سوء فعلهم، وعاقبة تكذيبهم.

﴿٣٣﴾ ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾

أفمن هو قائم بحفظ ومراقبة ومحاسبة كل نفس مخلوقة أحق أن يُعبد وحده ويُوحَّد بالطاعة، أم هذه الأوثان العاجزة والأصنام الجامدة التي لا تنفع ولا تضر، وصيَّر الكفار من جهلهم للواحد القهار شركاء، والله هو الذي خلقهم وما يعبدون من دونه، قل لهم - أيها النبي -: اذكروا أسماء هذه الآلهة وصفاتها، ولن يجدوا عندها ما يجعلها تستحق العبادة من دون الله، أم أنتم من جهلكم تخبرون ربكم بشركاء هو خلقهم في أرضه لا يعلمهم؟ أم تسمونهم شركاء بظاهر من اللفظ بلا معنى ولا حقيقة؟ بل لبَّس إبليس على الكفار باطلهم، وحسَّن لهم قبيح فعلهم، ومنعهم من الهداية بخداعه ومكره، ومن لم يرشده الله إلى الإيمان فليس له مرشد غير الله، ومن لم يوفقه للهدى فمصيره للردى.

٣٤ ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾

للكفار الأشرار عذاب في هذه الدنيا من القتل والأسر والذل والإهانة والخزي، ولعذابهم في النار في الآخرة من الأنكال والأغلال والأهوال أثقل وأشد وأفظع، وليس لهم مانع من عذاب الله ولا شافع عنده، ولا مدافع يرد عنهم أو يحميهم، فلا مولى ولا نصير ولا شفيع ولا ظهير.

٣٥ ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾

صفة الجنة التي وعد بها أولياءه الذين يتقونه ويتبعون رسوله ﷺ أنها جنة تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار، فاجتمع السناء والبهاء والماء مع الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء، ثمرها دائم؟!، داني القطاف لذيذ الطعم، ظلها لا يزول ولا يحول، وهذا مقام ومآب من خاف مولاه واهتدى بهداه، وأما مصير الأشرار الفجار فالنار وغضب الجبار، فيا بُعد ما بين المصيرين.

٣٦ ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾

والمؤمنون من أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد ﷺ كعبد الله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى يستبشرون بالوحي المنزل على رسوله ﷺ؛ لأنه يصدِّق ما عندهم من كتب، وأما من تحزّب وتعصَّب ضد الحق الذي أرسل به رسولنا ﷺ كالسيّد والعاقب أسقفي نجران، وكعب بن الأشرف من اليهود، فهم يكذبون ببعض القرآن، فأخبرهم - أيها النبي - أن الله أمرك أن تعبده وحده لا شريك له مخلصًا له الطاعة؛ لأن المرجع والمآب إليه والثواب والعقاب عليه.

٣٧ ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

ومثلما أنزل الله الكتب على الرسل بلسان أقوامهم أنزل الله القرآن على محمد ﷺ بلغة العرب أفصح اللغات؛ ليحكم به الرسول ﷺ وأتباعه من الأئمة بين الأمة، وعلى فرض أن النبي ﷺ - وحاشاه - اتبع أهواء المشركين في عبادة غير رب العالمين، أو في الحكم بغير ما أنزل الله في كتابه المبين، فليس له ناصر من دون الله يدفع عنه العذاب، ولا من يحميه من العقاب، فكيف بغيره إذا عبد سوى الله، أو حكم بغير شرع الله؟.

٣٨ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

وإذا قال الأعداء من الكفار والمنافقين البغضاء: إن محمدًا يتزوج النساء، فالرسل الذين قبله كانوا يتزوجون وينجبون، فهذه سنة الله في أنبيائه، وإذا قال الكفار: لو كان محمد ﷺ رسولاً من عند الله لجاءنا بما طلبناه من المعجزات، فلا يستطيع رسول من عند الله أن يأتي بما طلبه قومه من معجزات إلا إذا أراد الله، لكل أمر قدره الله كتاب وأجل، فالكتاب فيه العلم والقضاء والأجل وقت حصوله إذا أراد الله وشاء.

٣٩ ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

والله يمحو ما أراد من الأحكام نسخًا؛ لحكَمٍ علمها سبحانه، ويبقي ما أراد من الأحكام فلا ينسخها، ويمحو السيئات بالحسنات، وأما اللوح المحفوظ الذي فيه الرزق والأجل والسعادة والشقاوة فثابت لا يُمحى، باقٍ لا يُنسخ.

٤٠ ﴿ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾

وإذا أريناك - أيها النبي - بعض ما توعدنا به الكفار من الخزي والذل والصغار في هذه الدار، فهذا المعجّل لهم، وإن متَّ قبل أن تشاهد ذلك فليس عليك إلا إبلاغ الرسالة والدعوة، والله عليه حسابهم وعنده عقابهم.

(٤١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

أولم يشاهد الكفار أن الله ينقص الأرض من أطرافها بفتح المسلمين بلاد المشركين أو بزيادة الماء على اليابس؛ إيذانًا بقيام الساعة، والله وحده يحكم بالعدل، ويقضي بالفصل، لا معقب لحكمه فينتقض، ولا راد لقضائه فيمنع، وهو سريع الحساب، يحاسب البشر الكثير في الوقت القصير، فحسابه سريع فلا يستعجل، فكل ما هو آت قريب.

(٤٢) ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾

ولقد كادت الأمم السابقة رسلهم مثلما كاد الكفار محمدًا ﷺ، فالله وحده صاحب المكر العظيم، والكيد الكبير، يبطل مكر كل ماكر، ويحبط كيد كل كائد، والله وحده يعلم ما تفعله كل نفسٍ من خير أو شر، ومن حسن وسيئ، فيثيب ويعاقب، وسوف يعلم الكفار إذا قدموا على الملك الجبار لمن تكون العاقبةُ المحمودة والخاتمة الحسنة، إذ إنها بلا شك للمؤمنين أتباع المرسلين، والدائرة على المكذبين أعداء رب العالمين.

(٤٣) ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

ويقول الكفار للنبي المختار: لست مرسلاً من الواحد القهار، فأخبرهم - أيها الرسول - أن الله يشهد على صدق رسالتك، وصحة دعوتك، وكفى به شهيدًا، ويشهد برسالتك - أيضًا - من آمن بك من اليهود والنصارى أهل التوراة والإنجيل فنطق بشهادة الحق، ولم يكتمها كما فعل المكذبون من أهل الكتاب.

مكية

ترتيبها ١٤

# سورة إبراهيم

آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾

الحروف المقطعة الله وحده أعلم بمراده بها، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن والتحدي به.

وهذا القرآن كتاب أوحاه الله إلى رسوله؛ ليخرج به من استجاب له من ظلمات الكفر والجهل والغي إلى نور الإيمان والهدى؛ بتوفيق الله وإلهامه وتسديده لمن شاء من أوليائه، فيدلهم على الطريق المستقيم الذي دعا الله إليه، الغالب على أمره، القاهر على خلقه، العزيز في ملكه، الذي عزَّ فغلب سواه، وقهر فأذلّ من عاداه.

(٢) ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

الله وحده الذي له ما في السموات والأرض خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وتصريفًا، فكما أنه لا شريك له في الخلق فكذلك يجب أن لا يشرك به شيء في العبادة، بل يُعبد وحده لا إله إلا هو، ودمار وهلاك وسخط وغضب على من جحد بآياته وكذب رسالاته يوم العرض الكبير من عذاب أليم وهوان مقيم في الجحيم.

(٣) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾

هؤلاء الكفار يؤثرون الحياة الدنيا ويقدمونها على الآخرة ويحبونها ويعملون لها، ويغترون بزينتها وزخرفها، وينسون ما أمامهم من الحساب والجزاء، ويحولون بين الناس وبين دين الله -عز وجل-، بالإيذاء والتهديد والوعيد، ويريدون أن تكون الطريق ملتوية معوجة وَفْقَ أهوائهم، أولئك في بعد عن الحق كبير، وفي غيٍّ وسفه؛ لأنهم اختاروا الضلال على الهدى.

٤ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

وما بعث الله من رسول قبل محمد ﷺ إلا بلغة قومه؛ ليفهموا عنه؛ ولتكون شريعته واضحة ميسرة سهلة، وبعد إقامة الحجة عليهم يضل الله من أراد عن الهدى، ويهدي من أراد إلى الحق، وهو العزيز الذي غلب أمره وارتفع قدره، وظهر قهره، الحكيم فيما خلق وأبدع وصوَّر وصنع وحكم وشرع.

٥ ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾

ولقد أرسل الله موسى إلى بني إسرائيل بالآيات البينات والمعجزات الباهرات كالعصا واليد، وأمره ربه أن يدعو الناس فيخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويذكرهم بنعم الله عليهم يوم أنجاهم من فرعون وأعطاهم المن والسلوى، وفجَّر لهم الحجر وغير ذلك، ويذكرهم بأيام النقم كمسخ بعضهم والتنكيل ببعضهم، إن في هذه الذكرى مواعظَ بليغة وعبرا عظيمة لمن صبر على البلاء والضراء، وشكر على السراء والرخاء؛ لأن من هذا وصفه فهو العابد الصادق حقًا الذي حقق مراتب العبودية من صبرٍ وشكرٍ، فاستحق الولاية وانتفع بالحكمة وحاز الفوز وأدرك الفلاح.

٦ ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴾

واذكر - أيها النبي - خبر موسى ﷺ يوم قال لقومه بني إسرائيل: يا قومي، تذكروا نعمة الله بالشكر يوم أنجاكم من فرعون وجنوده، وكانوا يذيقونكم أشد العذاب من قتل واستعباد وظلم، فهم يذبحون الذكور من أبنائكم خوفًا منهم إذا كبروا، ويتركون الإناث للخدمة، وفي الابتلاء والإنجاء اختبار لكم بالضراء والسراء؛ ليرى الله صبركم وشكركم.

٧ ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴾

وقال موسى لقومه: لقد كتب الله وقضى وأمضى: لئن شكرتموه على نعمه بطاعته وترك معاصيه ليزيدنكم من فضله الواسع ومن كرمه العميم، فما استُجلبت النعمةُ ودامت إلا بالشكر، ولئن جحدتم نعمة الله وتركتم طاعته وارتكبتم معاصيه فسوف يعذبكم عذابًا شديدًا على فعلكم القبيح.

٨ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

وقال لهم موسى: لو قدِّر أنكم كفرتم بالله أنتم وجميع من في الأرض فلن تضروا الله شيئًا، فليس الله في حاجة إلى طاعة أحد، ولو كانت الخليقة كلها على أفجر قلب رجل ما نقص ذلك في ملكه شيئًا، فهو غني عن كل أحد؛ لأنه فرد صمد، وهو مستحق للحمد والثناء، محمود في الأرض والسماء، غني عن الخلق، محمود بصفات الحق، غني عمن تولى، يحمد من أقبل إليه.

٩ ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴾

أما جاءكم يا أمة محمد خبر من قبلكم من الأمم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح والذين جاؤوا من بعدهم لا يحصي عددهم ولا يعلم كثرتهم إلا الله وحده، جاء الرسل هؤلاء الأقوام بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على صدقهم، فعضوا أيديهم غيظًا وحقدًا وتجبرًا عن قبول الحق، وقال من كفر منهم لرسلهم: إنا نكذبكم فيما جئتم به من توحيد الله والإيمان به، ونحن نشك في صدقكم، ونتهكم فيما تدعون إليه، ونرتاب في صحة نبوتكم.

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

فردَّ الرسل على المكذبين لهم بقولهم: أفي وحدانية الله شك وألوهيته -عز وجل- وهو الذي خلق السموات والأرض وأبدع ما فيهما من خلق على غير مثال سابق، وهو يدعوكم إلى توحيده وطاعة رسله ليغفر لكم ذنوبكم ويمتعكم في حياتكم متاعًا حسنًا إلى الأجل المقدر لكم، فلا يعاقبكم في الدنيا بل لكم السلامة والأمان بالإسلام والإيمان، فقالوا لرسلهم: أنتم بشر مثلنا، صفاتكم كصفاتنا، ليست لكم ميزة علينا تجعلكم أهلاً للرسالة، فلماذا تُفضَّلون علينا بلا سبب، وأنتم تريدون منعنا من عِبَادةِ ما كان يعبد الآباء والأجداد من الأنداد والأضداد، فتعالوا بحجة واضحة ودليل ظاهر على صدق دعوتكم وصحة رسالتكم؟

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

فأجاب الرسل أقوامهم على قولهم: "إنكم بشرٌ مثلنا" بقولهم: نعم نحن بشرٌ مثلكم كما قلتم، ولكن الله فضلنا بالرسالة وميزنا بالنبوة كرمًا منه وفضلاً، وأما ما سألتم من البراهين والمعجزات فنحن عباد مأمورون لا نستطيع أن نأتي بها إلا بإذن الله ومشيئته، وعلى الله وحده يعتمد المؤمنون فينصرهم على أعدائهم ويتولاهم في كل أمورهم.

﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

وكيف لا نعتمد على الله ونفوّض الأمر إليه، وهو وحده الذي بصّرنا بالحق وأرشدنا إلى الهدى ودلنا على طريق النجاة، وسوف نصبر على أذاكم لنأمن قبيح الكلام وسوء الفعال، وعلى الله وحده يعتمد المؤمنون فيكونون أقوياء بالله، أعزاء بدينه منصورين بتأييده.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾

وألح الكفار في إيذاء الأنبياء الأبرار وتوعدوهم وهدّدوهم وقالوا لهم: لنطردنكم من أوطاننا أو لترجعنَّ إلى ديننا وتتركون دينكم، فأوحى الله إلى الرسل بأنه سوف يهلك الكفار ويمحق الأشرار بالعذاب والدمار.

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

ولنمكنن لأوليائنا في الأرض بعد إهلاك أعدائنا فتكون العاقبة الحميدة لمن اتقى الله واهتدى بهداه، وهذا النصر والتمكين لمن خاف الوقوف يوم العرض على الله وخشي الوعيد بالعذاب، فعمل صالحًا، فالعز والمجد والتوفيق كله في طاعة الله عز وجل.

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

واستغاث الأنبياء بربهم وسألوه أن يفتح ويحكم بينهم وبين الكفار بنصر منه لأوليائه على أعدائه، فأجابهم ربهم فأيدهم ونصرهم ومحق عدوهم وأذلَّ كل متكبر لا يقبل الحق ولا يذعن له، معاندًا للدليل لا يقر لربه بالتوحيد ولا لأنبيائه بالرسالة، فهو جبار في نفسه بالفخر والعلو، عنيد لما يعرض عليه من حق وصدق، يجادل بالباطل ويدافع بالكذب.

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴾

من وراء هذا الجبار العنيد نار جهنم يصلى حرَّها، شرابه فيها من القيح والدم الذي تخرجه أجساد الفجار في النار.

﴿١٧﴾ ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

يحاول الكافر أن يبتلع الصديد في النار مرة بعد مرة، فلا يبتلعه لنتن القذارة وشدة الحرارة وكثرة المرارة، ويأخذه العذاب بأصنافه وأشكاله من كل جارحة من جوارح جسمه، ومع كل عضو وعرق وعصب، ولا يدركه الموت فيستريح، ولا يحيا حياة رضية فيسعد، وله العذاب المؤلم الموجع الدائم في نار جهنم.

﴿١٨﴾ ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

صفة ما يعمله الكافرون في حياتهم الدنيا من صدقة وصلة وبر كصفة الرماد الذي هبت عليه ريح عاصفة شديدة، فبعثرته ونثرته وشتتته فلم يبق له أثر، كذلك أعمال الكفار يُذْهِبها الكفر والرياء فلا يبقى لها نفع عند الله، فقد أذهبها الشرك كما أذهبت الريح الرماد؛ لأن عملهم فاته الإيمان والإخلاص، فكل سعي على غير قاعدة من تقوى الله وطاعته هو الضلال البعيد عن الصراط المستقيم، فعمل بلا إخلاص كجسد بلا روح.

﴿١٩﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

ألم تعلم - أيها الإنسان - أن الله وحده هو الذي أوجد السموات والأرض وأنشأهما من العدم في صنعٍ بديع يدل على تمام حكمته وكمال صنعه، ولم يخلقهما لعبًا ولا عبثًا، بل للدلالة على عظمته ووحدانيته؛ ليعبد وحده لا شريك له، وإذا أراد أن يفنيكم - أيها الناس - فعل، ويأتي بقوم غيركم أطوع منكم لله، وأعبد لربهم منكم، فخلقكم وفناؤكم سهل عليه جل في علاه.

﴿٢٠﴾ ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

وما إماتتكم وهلاككم وتبديلكم بغيركم بأمر عسير على الله، بل هو يسير، فقدرته نافذة وأمره غالب.

﴿٢١﴾ ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

وخرج الناس من قبورهم لملاقاة ربهم يوم العرض الأكبر، ليفصل بينهم ويجازيهم، قال الأتباع للرؤساء: نحن كنا في الدنيا تحت ولايتكم نأتمر بأمركم، فهل تنفعوننا اليوم بدفع العذاب عنا كما وعدتمونا في الدنيا؟ فقال الرؤساء: لو أن الله وفقنا للهداية لكنا أرشدناكم إلى الطريق المستقيم، ولكنه لم يوفقنا - سبحانه - للحق، فضللنا نحن ثم أضللناكم، فلا ينفعنا اليوم نحن وإياكم الصبر؛ لأن العذاب لا يُطاق ولا ينفعنا الجزع؛ لأنه لا جدوى منه، فلا مهرب من عذاب الله ولا منجى ولا مفر؛ لأنه عذاب لا ينقطع ولا يخفف.

﴿٢٢﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وقال الشيطان بعدما فُرِغَ من الحساب، فريق في الجنة، وفريق في السعير: يا أتباعي: إن الله قد وعدكم في الدنيا وعدًا صادقًا من أنه سوف يبعثكم ويحاسبكم، ووعدتكم أنا وعدًا كاذبًا بأنه لا بعث ولا حساب، فتم وعد الله وكذب وعدي، وما كنتُ صاحب قوة أقهركم بها على اتباعي، وما كان معي دليل واضح على ما دعوتكم إليه، ولكن ناديتكم إلى الكفر والغواية فأجبتموني، فليس علي لوم، اللوم عليكم أنتم؛ لأنكم اتبعتم من لا يملك قوة ولا برهانًا على دعوته، فالخطأ خطؤكم، لن أغيثكم اليوم من العذاب، ولن أنقذكم من العقاب، وأنتم لستم مغيثي من غضب الجبار ولا عذاب النار، إني أبرأُ من إشراككم مع الله غيره، واتخاذكم إياي شريكًا لله - تعالى عن ذلك - إن الظالمين الذين صرفوا عبادتهم لغير مستحقها وهو الله وحده وتركوا الحق واختاروا الباطل لهم عذاب شديد دائم موجع في نار جهنم.

﴿٢٣﴾ ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾

وحكم الله بين العباد، فأدخل الأبرار دار القرار، تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبدًا ما دام الليل والنهار، تحييهم الملائكة الأخيار؛ برضا العزيز الغفار، فهم في أمن وأمان، وروح وريحان، ونخل ورمان، مع رضا الرحمن، وسرور قلوب وراحة أبدان.

﴿٢٤﴾ ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾

أما رأيت وعلمت كيف وصف الله كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)؟ كأنها شجرة عظيمة كريمة، وهي النخلة، أصلها راسخ متمكن في الأرض الطيبة، وأعلاها باسق عالٍ مرتفع في السماء، فكذلك كلمة التوحيد ثابتة في قلوب المؤمنين قد آتت أكلها من الطاعات وأنواع العبادات في كل وقت وآن كطلع النخلة الهضيم النضيد الحلو، مع بقاء خضرتها وكثرة منافعها وجمالها وكمالها.

﴿٢٥﴾ ﴿ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

تعطي هذه النخلة ثمرها اليانع كل وقت بمشيئة الله، وكذلك شجرة الإيمان في القلب تخرج من ثمار الطاعات والخيرات والفضائل والأخلاق ما فيه صلاح للنفس والناس، فيحصل لصاحبها من الثواب العظيم، والثناء الكريم ما الله به عليم، والله يذكر الأمثال للناس تفهيمًا لهم لتتضح لهم المسائل، ويتفقهوا في معاني المثل فيعتبروا ويتعظوا.

﴿٢٦﴾ ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴾

والله ضرب مثلاً كلمة الكفر القبيحة كشجرة الحنظل الخبيثة، فطعمها مر، ولا نفع لها ولا خير فيها، وليست راسخة، فجذورها قريبة من سطح الأرض ليس لها أصل ثابت، ولا فرع عالٍ، وكذلك الكافر لا مبدأ له ثابت، ولا خير مأمول، ولا نفع منتظر، ولا يرفع له عمل صالح ولا تجاب له دعوة.

﴿٢٧﴾ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

الله يثبت المؤمنين على كلمة الحق وشهادة الصدق: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" في الحياة الدنيا وعند سكرات الموت، وعند سؤال الملكين في القبر، وعند القيام لرب العالمين، ولا يوفق الله الكفرة الفجرة لقولها، ولا يلهمهم الصواب، ولا يهديهم للجواب، والله يفعل في خلقه ما يشاء من هداية المؤمنين وإضلال الكافرين، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿٢٨﴾ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾

ألم تنظر - أيها المسلم - الرشيد إلى كفار مكة الذين استعاضوا بالكفر مكان الإيمان بالله وشكره على نعمة الأمن ورسالة محمد ﷺ ووجود الحرم بين ظهرانيهم، وقد قادوا أتباعهم يوم بدر إلى دار الهلاك والخزي وهي نار جهنم.

﴿٢٩﴾ ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴾

نار جهنم يقاسون حرَّها ويصلون نارها ويذوقون عذابها، وأقبح بها من مستقرٍ لمن كفر واستكبر.

﴿٣٠﴾ ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

واتخذ الكفار آلهة يعبدونهم من دون الله؛ ليبعدوا العباد عن طريق الهداية، فقل لهم - أيها النبي -: استمتعوا في هذه الدنيا القصيرة الحقيرة الفانية، فإنها سريعة التحول والزوال، وسوف ترجعون إلى نار جهنم في أهوال وأغلال وأنكال.

﴿٣١﴾ ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾

قل - أيها النبي - لعباد الله المؤمنين المصدقين بوعد ربهم: يؤدوا الصلاة على أكمل وجه، ويتصدقوا ببعض ما وهبهم الله في أبواب الخير في حال السر والعلن حسب المصلحة، من قبل أن يأتي يوم العرض على الله؛ فذاك اليوم لا ينفع فداء ولا صداقة، فلا مال يدفع ولا حبيب يشفع.

﴿٣٢﴾ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴾

الله وحده الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما من العدم، وأنزل الغيث من الغمام فأحيا به من كل زوج بهيج؛ بما في ذلك قوت الناس من حبوب وفواكه وخضراوات، وذلل السفن تسعى في مياه البحار؛ بمنافع الناس من سفر وسياحة وتجارة وجهاد، وذلل الأنهار لمصلحة الناس لشربهم وغسلهم ومزارعهم وقيام حياتهم وحياة دوابهم فضلاً منه وكرما.

﴿٣٣﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

وذلل الله للعباد الشمس والقمر ذهابًا وإيابًا، وفيهما مصالح من النور والإضاءة ومعرفة السنين والحساب وإنضاج الثمار، وذلل الليل للراحة من الأشغال، والنوم بعد الملل والكلال، وسخر النهار لطلب الكسب والمعاش والبناء والإنتاج، فالليل والنهار هما موسم الطاعات وزمن العبادات ومزرعة القربات.

﴿٣٤﴾ ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

والله هو الذي أعطاكم جميع ما طلبتموه من مال وعيال وصحة وعافية وأمن، وإن تعدّوا نعم الله عليكم لا تستطيعوا حصرها من كثرتها وتنوعها، إن الإنسان كثير الظلم لنفسه والمعاصي والذنوب، كثير الجحود لنعم الرب - سبحانه - قليل الشكر، فهو كثير السؤال لذي الجلال فإذا حصل على ما يطلب نسي ما يجب.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

واذكروا يوم دعا إبراهيم ربه بعد أن أسكن إسماعيل وأمه مكة: يا رب، أسألك أن تجعل مكة بلدًا آمنًا يأمن فيه من حل فيه فلا يخاف، واعصمني وأبنائي من عبادة الأصنام، فبالأمن يطيب العيش، وبالإيمان تطيب الدنيا والآخرة.

﴿٣٦﴾ ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يا رب: إن الأصنام أبعدت العباد عن عبادة رب العباد، وجعلتهم يشركون بالله غيره من الأضداد والأنداد، فمن استن بسنتي في توحيد الله وإخلاص العبادة له فهو على ديني وملتي، ومن خالفني فيما دون الشرك فإن الله كثير الغفران لصاحب الذنوب إذا تاب إلى ربه، كثير الرحمة يعفو عمن شاء، لا يتعاظمه ذنب أن يمحوه ولو بلغ عنان السماء.

﴿٣٧﴾ ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ۙ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

يا ربنا: إنني أسكنتُ بعض ذريتي بوادي مكة بجوار بيتك الحرام، وليس فيه زرع ولا ماء؛ امتثالاً لأمرك؛ لكي يؤدوا الصلاة على أتم وجه، فأسألك بأن تهفو قلوب بعض عبادك إليهم شوقًا وتعطف عليهم حبًا، وارزقهم من أنواع الثمار ومن بركات الأرض؛ لكي يؤدوا شكر نعمتك ويستعينوا بها على طاعتك، فاستجاب الله دعاءه ولبى طلبه.

﴿٣٨﴾ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾

يا ربنا: إنك تعلم كل ما نخفيه من النيات والعقائد والأسرار، وتعلم ما نظهره من الأقوال والأعمال، ولا يغيب عن علمك شيء من الكائنات في الأرض والسموات، فالغيب عندك ظاهر والسر لديك علانية، أحاط علمك بكل شيء.

﴿٣٩﴾ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

ثم قال إبراهيم شاكرًا ربه على نعمه: الحمد لله الذي أعطاني على كبر سني وشيخوختي ابنيَّ البارين إسماعيل وإسحاق، لما سألته أن يهب لي من الصالحين، فربي سميع الدعاء لمن دعاه، سألته فأعطاني، وطلبت منه فأكرمني وحباني، وفي الآية بيان فضل الدعاء وسؤال الله الذرية الطيبة، وشكر الله على النعم.

﴿٤٠﴾ ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾

يا ربي: أعني على مداومة أداء الصلاة على أتم وجه، ووفق ذريتي للمحافظة عليها في أوقاتها بأحكامها، وخصَّ الصلاة؛ لأنها عمود الدين، يا ربنا: استجب دعوتي وحقق مسألتي.

﴿٤١﴾ ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾

يا ربنا: اغفر لي ما وقع مني من تقصير لا يسلم منه العباد، واغفر لوالدي - وهذا قبل أن يظهر له أن والده عدو لله - واغفر يا ربنا لجميع من آمن بك ذنوبهم يوم تجمع الناس للحساب.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾

ولا تحسب - أيها النبي - أن الله يغفل عن أفعال الظالمين، من محاربة لله وصدٍ عن سبيله، وإيذاء لرسول الله مع الكفر والتكذيب، إنما يؤجل الله معاقبتهم ليوم شديد رهيب، ترتفع فيه عيونهم ولا تغمض من كثرة الأهوال، وفي هذا تسلية للرسول ﷺ وأتباعه مع الإعلان عن سنة الله في الظَّلَمَة أنهم في هلاك ودمار، ولو مدَّ لهم في الأعمار.

﴿٤٣﴾ ﴿ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ﴾

يوم القيامة يخرج الظالمون من القبور مسرعين لإجابة الداعي رافعي رؤوسهم لا يبصرون شيئًا لهول القيامة، وقلوبهم خالية ليس فيها شيء من الثبات واليقين لكثرة الخوف والفزع.

﴿٤٤﴾ ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴾

وخوِّف - أيها النبي - الأمة عذاب يوم القيامة، يوم يقول الظلمة لأنفسهم بالكفر: يا ربنا، أمهلنا قليلاً حتى نتوب ونتبع رسولك؛ فيوبخهم الله على كفرهم وتكذيبهم بأنهم حلفوا في حياتهم الدنيا أنهم لا يموتون ولا يفارقون دنياهم، وقد أنكروا البعث بعد الموت.

﴿٤٥﴾ ﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾

وحللتم - أيها الظالمون - في منازل الظَّلَمَة قبلكم كقوم هود وصالح، ووصلكم نبأ ما فعل الله بهم من الهلاك وضرب الله لكم الأمثال الواضحة فلم تعتبروا بها، بل أعرضتم وكذبتم.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴾

وقد دبّر الكفار للنبي المختار جميع أنواع الكيد من قتلٍ وحبسٍ وإخراج، والله محيط بهذا الكيد، وقد أبطله وأحبطه بكيده القوي، ولو كان مكرهم تكاد تزول منه الجبال، لكن كيد الله أعظم، ومكره أكبر، فغلبهم - سبحانه - ولم يضروا الله شيئًا، بل عاد ضررهم على أنفسهم.

﴿٤٧﴾ ﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴾

فلا تحسبن - أيها النبي - أن الله يخلف الرسل ما وعدهم من النصر والتمكين وإهلاك المكذبين فهذا لن يكون أبدًا؛ لأن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء، عز فقهر، وحكم فغلب، وهو - سبحانه - ينتقم من أعدائه أشد الانتقام؛ لأن عزَّه لا يُرام، وركنه لا يُضام.

﴿٤٨﴾ ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾

وهذا الانتقام من أهل الظلم والإجرام يكون يوم القيامة، يوم يبدل الله الأرض هذه بأرض أخرى بيضاء نقية كالفضة لم يسفك عليها دم، ولم يقع عليها ظلم، ويبدل الله السموات بغيرها، ويخرج الله البشر من قبورهم ظاهرين من عرصات الحساب للقاء الواحد القهار، المتفرد بالعظمة، الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، قهر غيره وغلب سواه، وكبت من عاداه، وأخزى من آذاه، له العزة المطلقة والتفرد التام.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾

وتبصر يوم القيامة الكفرة المجرمين مقيدين بالقيود، رُبطت أيديهم بالأغلال، وقُيدت أرجلهم بالسلاسل، فهم في غل وذل، وهوان وخسران، ومقت ولعنة.

﴿٥٠﴾ ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

فُصِّلت ثيابهم عليهم من زيت القطران قوي الاحتراق، شديد الاشتعال، بالغ الحرارة، وتشوي وجوههم نار جهنم وتتمزع وتتقطع.

(٥١) ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

وهذا الجزاء من الله لأعدائه عدل لا ظلم فيه على ما قَدَّموا من الآثام وفعلوا من الإجرام؛ لأن الله يجازي كل عامل بما عمل من حسن وسيء، وهو الذي يحاسب الجمع الكثير في الوقت القصير، فهو اللطيف الخبير.

(٥٢) ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

هذا القرآن الذي أنزله الله عليك - أيها النبي - هو إعلام للبشر، وتخويف للناس، فيه البشارة لمن آمن، والنذارة لمن كفر، علَّمهم أن يتعظوا، وليوقن من بلغه القرآن أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فيعبدوه وحده بلا شريك، وليعتبر به أصحاب العقول السليمة والفطر القويمة والنفوس الكريمة، فهو أجل موعظة في الدنيا.

مكية

ترتيبها ١٥ — آياتها ٩٩

## سورة الحجر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾

الحروف المقطعة: الله أعلم بمراده بها، وما أنزلها إلا لمعان جليلة.

تلك الآيات الكريمة هي آيات الكتاب العظيم المنزل من الله على رسوله الكريم، وهو كلام الله القرآن، الواضح البين في ألفاظه ومعانيه، نزل بأجمل عبارة، وألطف إشارة، بالبشارة والنذارة، فيه سعادة الدنيا وفلاح الآخرة.

(٢) ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾

سوف يتمنى الكفار إذا شاهدوا خروج عصاة المؤمنين من النار لو كانوا مؤمنين بالواحد القهار؛ لينجوا من غضب الجبار، ولكن هيهات، فات الأوان، ووقع عليهم الخسران.

(٣) ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

اترك الكفار يأكلوا في دنياهم الفانية، ويتمتعوا بلذائذ عيشهم ونيل شهواتهم وإشباع رغباتهم ونزواتهم، ويشغلهم الطمع والحرص على البقاء في عبادة الله، فإذا انكشف الأمر علموا خسارة ما فعلوا، وتفاهة ما أمَّلوا، وقبح ما صنعوا.

(٤) ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾

وإن استعجل الكفار العذاب في الدنيا استبعاداً له، فإن الله لا يهلك قرية إلا إذا حان أجلها المقدر، ووقت هلاكها المحدد لا وفق رغبتهم وأهوائهم.

(٥) ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾

لا يتجاوز قوم أجلهم المحدد فيزيدون عليه، ولا يتقدم قوم وقتهم المعلوم فينقصون منه، لكل قوم أجل معلوم.

(٦) ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾

وقال الكفار للنبي المختار: أيها الذي ادَّعى نزول القرآن عليه، لقد ذهب عقلك، ولو كنت عاقلاً ما ادعيت النبوة؛ تكذيبًا منهم واستهزاء.

(٧) ﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

هلاّ جئتنا بملائكة السماء يشهدون لك أنك رسول من عند الله؟! فبغير شهادتهم لا نصدق، ولو شهدت الملائكة ما صدقوا!!

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ (٨)

فأجابهم الله تعالى: بأنه لا ينزل الملائكة إلا بهلاك المكذبين الذي ما بعده مهلة وانتظار لمن لم يؤمن بالله، فإذا نزل بهم الهلاك فالله لا يمهلهم طرفة عين.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (٩)

إن الله وحده نزَّل القرآن العظيم على النبي الكريم ﷺ، وتعهد الله بحفظه من الزيادة والنقصان، ومن عبث الإنس والجان، ولغو العرافين والكهان، فهو في حفظ الله طيلة الأزمان.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (١٠)

ولقد سبقك - أيها النبي - رسل من الله أرسلهم إلى فرق السابقين وطوائف الماضين بتوحيد رب العالمين.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١١)

وما جاء أولئك الأقوام السابقين من رسول من رب العالمين إلا سخروا منه وآذوه واستهزؤوا برسالته، وهذا عزاء وتسلية لرسول الله ﷺ، فكما حصل لك من إيذاء فقد حصل لمن قبلك، فلك أسوة.

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٢)

كما أدخل الله التكذيب والإنكار في قلوب السابقين من الكفار، كذلك يدخل الله الكفر في قلوب مشركي هذه الأمة الذين استهزؤوا بالرسول ﷺ وكذبوه، فقد فعل الله بهم ما فعل بمن سبقهم لما أعرضوا.

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (١٣)

لا يصدق الكفار بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله، وقد سبقت سنة الله في إهلاك كل من كفر به وكذب رسله.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ (١٤)

ولو فتح الله بابًا من السماء لكفار مكة فصعدوا ودخلوا هذا الباب حتى شاهدوا الملائكة لكذبوا واستمروا على الكفر!!

﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ (١٥)

ولقال الكفار بعد صعودهم ومشاهدتهم الملائكة إننا مسحورون، وقد تخيّلنا رؤية الملائكة، والذي سحرنا هو محمد!! فهم مكذبون سواء أشاهدوا آية أم لم يشاهدوا.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ (١٦)

ومن براهين قدرة الله وبديع صنعه أنه جعل في السماء الدنيا منازل للكواكب تنزل فيها، ودليلاً للمسافرين والمؤرخين وأوقات الغيث والقحط، وجمَّل الله السماء بالنجوم لمن يشاهدها فيستدل بخلقها على حكمة الله وجمال خلقه.

﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ (١٧)

وحفظ الله السماء بالشهب المحرقة من كل شيطان مطرود من رحمة الله؛ كي لا يسترق السمع فيأخذ شيئًا من الوحي.

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٨)

إلا من اختلس بعض الكلام من الملأ الأعلى أحيانًا، فإن الكواكب المضيئة المحرقة تدركه، وقد يخبر الشيطان أولياءه من العرافين والكهنة ببعض ما استرق قبل أن يُحرق.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (١٩)

وبسط الله الأرض وسوَّاها ونصب فيها جبالاً قوية تثبتها لئلا تضطرب، وأنبت في الأرض من كل زوج بهيج من أنواع النباتات بحصص مقدرة مما يحتاج إليه البشر والدواب.

٢٠ ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾

والله جعل في الأرض مصدر الرزق والمعاش للناس والدواب من الحبوب والفواكه والخضراوات وأنواع المعادن، وهو الرازق وحده تكفَّل بقوت كل مخلوق.

٢١ ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

وليس في العالم شيء ينتفع به العباد والدواب إلا عند الله خزائنه بأنواعه وأصنافه، وينزله الله متى ما أراد بمقدار محدد، وحصص معلومة، فهو الذي يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، يغني من شاء ويفقر من شاء بحكمةٍ بالغةٍ ورحمةٍ واسعة.

٢٢ ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾

وأرسل الله الرياح وجعلها تلقح السحاب فتمطر -بإذن الله- ماءً مباركًا يسقي به العباد والبلاد والدواب والأشجار، فالله الذي يخزن الماء وليس العباد، فإذا قحط الناس ألحوا على الله في سؤال الغيث.

٢٣ ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾

والله وحده يحيي الأموات بالخلق من العدم وبالإعادة بعد الموت، ويميت الحي إذا انتهى أجله، وهو الوارث للأرض ومن عليها؛ لأنه - سبحانه - الباقي بعد فناء خلقه.

٢٤ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾

ولقد علم الله من مات من المتقدمين، وعلِمَ الأحياء من الخلق أجمعين، وعلم من سيأتي إلى يوم الدين.

٢٥ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

والله وحده يجمع العالم للحساب يوم القيامة، فهو حكيمٌ في تدبيره وتقديره وتصويره، عليم بالأحوال والأقوال والأعمال والبداية والمآل.

٢٦ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

والله وحده هو الذي خلق آدم من طين يابس، له صوت إذا نُقر، من طين أسودَ متغير اللون والريح لطول بقائه، فمن أصله من الطين فلا يتكبر على رب العالمين.

٢٧ ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾

وخلق الله أبا الجن -وهو إبليس- من شعلة نار حارة لا دخان فيها، فجاء عجولاً طائشًا سفيهًا مؤذيًا كطبيعة النار، وجاء آدم كريمًا لينًا متواضعًا كطبيعة التراب.

٢٨ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

واذكر يوم قال الله للملائكة: إني خالق إنسانًا من طين يابس، وهذا القول من الله إعلام للملائكة بمنزلة آدم عنده وتهيئةٌ لهم ليسجدوا له.

٢٩ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

فلما سوى الله صورة آدم وحسَّن خلقه نفخ فيه الروح، فخر الملائكة لآدم ساجدين تحية وتكريمًا، لا سجود عبادة، فلا يُسجد إلا لله وحده.

٣٠ ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

فسجد كل الملائكة ولم يتخلف منهم أحدٌ؛ امتثالاً لأمر الله وإكرامًا لآدم، فنالوا مزيد القرب من الله؛ لأنهم أطاعوا أمره.

٣١ ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

لكن إبليس عصى أمر الله وامتنع أن يسجد لآدم؛ تكبرًا وحسدًا، فخالف الملائكة في السجود، فلعنه الله وطرده من رحمته.

﴿٣٢﴾ ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

فلام الله إبليس وأنكر عليه عدم السجود لآدم مع الملائكة؛ لأن الكبر حمله على عصيان الأمر، فمعصيته من الشبهات، ومعصية آدم في الأكل من الشجرة من الشهوات، وهي أخف.

﴿٣٣﴾ ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٖ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾

قال إبليس معانداً حاسداً لآدم: لن أسجد لمخلوق صوَّرته من طين يابس أسودَ متغير، وأنا خُلقتُ من النار، والنار أشرف من الطين. وهذا قياس المفسدين.

﴿٣٤﴾ ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴾

فأمر الله بإخراج إبليس اللعين من الجنة مطروداً خائباً؛ لكبره وحسده، فالمتكبر والحاسد محروم من كل خير.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

وجعل الله اللعنة والطرد والإبعاد على إبليس إلى يوم المعاد؛ لأنه عصى الخالق وحسد المخلوق، وهو أول من قاس مع وجود النص.

﴿٣٦﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾

فسأل إبليس ربه أن يؤخره إلى يوم القيامة؛ ليبقى حيًا يفتن العباد لما فيه من زيغ وفساد وحسد وعناد.

﴿٣٧﴾ ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾

فأخبره الله أنه قد أخَّر هلاكه إلى الوقت الذي يموت فيه الخلق بعد النفخة الأولى، فالله أمهله لحكمةٍ عظيمة.

﴿٣٨﴾ ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾

وكان تأخير الله لإبليس إلى أجل مسمى استدراجًا له وإمهالاً وابتلاءً للثقلين وفتنة للعالمين؛ ليظهر المؤمن من الكافر.

﴿٣٩﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

قال إبليس: يا ربي ما دمت قد أغويتني وأضللتني فسوف أُحسِّنُ المعاصي لبني آدم في حياتهم الدنيا، وأضلّهم بالغواية عن الهداية.

﴿٤٠﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾

لكني لا أستطيع أن أغوي الصادقين في إيمانهم المخلصين في طاعتهم، فهؤلاء محفوظون برعاية الله من إضلالي فلا سبيل لي عليهم.

﴿٤١﴾ ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴾

قال الله تعالى: هذا طريق الهداية والإيمان المستقيم المعتدل الموصل إليّ وإلى جنتي، وهو طريق الأنبياء والرسل.

﴿٤٢﴾ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾

إن العباد الصالحين المخلصين ليس للشيطان عليهم ولاية، ولا سبيل له إلى إضلالهم وصدهم عن سبيل الله، فهم محفوظون بحفظ الله دائمًا، لكن سلطان الشيطان على من عصى الرحمن وعبد الأوثان، فهو وليهم يغويهم ويضلهم.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

وإن نار جهنم الموقدة الموصدة موعد الشيطان وأتباعه إلى يوم القيامة، يجمعون فيها خالدين في العذاب.

﴿٤٤﴾ ﴿ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴾

للنار سبعة أبواب، لكل باب قسم من أتباع الشيطان حسب أعمالهم، كل باب أسفل من الآخر.

﴿٤٥﴾ ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴾

إن الذين اتقوا الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى، مصيرهم إلى بساتين وارفة، وأنهار جارية في قرة عين.

﴿٤٦﴾ ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾

يقال للمتقين: ادخلوا الجنات سالمين من كل آفة، آمنين من كل مخافة، فالسلام للأبدان والأمن للقلوب.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾

وأخرج الله ما في قلوب الأبرار في تلك الدار من حسد وحقد وغش وغل وعداوة، وهم متحابون متوادون، جلوسهم على أسرة مرفوعة، تتقابل وجوههم محبة وألفة؛ لزيادة النعيم وتمام التكريم.

﴿٤٨﴾ ﴿ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾

لا يصيبهم في الجنة وصب ولا نصب ولا تعب، وهم ماكثون فيها في خلود دائم ونعيم مستمر.

﴿٤٩﴾ ﴿ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أخبر العباد - أيها النبي - أن الله كثير الغفران لمن تاب من أهل العصيان، كثير الرحمة لمن أناب، يغفر الذنوب العظيمة لمن صدق بتوبة كريمة.

﴿٥٠﴾ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴾

وإن عذاب الله هو أشد العذاب وأقوى العقاب، فهو مؤلم موجع فظيع لا يُطاق لمن لم يتب، فالله واسع المغفرة للتائبين، شديد العقوبة للمصرين، والواجب الجمع بين الخوف من الله والرجاء في عفوه.

﴿٥١﴾ ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾

وأخبر الناس - أيها النبي - عن خبر ضيوف إبراهيم من الملائكة الذين بشروه بإسحاق وبهلاك قوم لوط.

﴿٥٢﴾ ﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴾

فلما دخل الملائكة على إبراهيم قالوا له: سلامًا تسلم به من كل الآفات، فردَّ عليهم السلام، وقدم لهم الطعام، وبالغ في الإكرام، فلما أبوا أن يأكلوا قال: إنا منكم خائفون.

﴿٥٣﴾ ﴿ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾

قالت الملائكة لإبراهيم: لا تخف منا، فعندنا لك بشارة بابن عالم بالله وبشرعه وهو إسحاق، فأعظم صفة للعبد بعد الإيمان هو العلم النافع.

﴿٥٤﴾ ﴿ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾

قال إبراهيم لهم: كيف تبشرونني بولد وقد ذهب غالب عمري، ورقَّ عظمي، ودنا أجلي، وكذلك زوجتي، فبأيِّ أعجوبة تبشرونني ومثلي لا يُولَدُ له.

﴿٥٥﴾ ﴿ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ﴾

قالوا: بشارتنا لك يقين لا شك فيه، وهي من رب العالمين الذي لا يخلف الوعد، فلا تيأس من الولد على كبر السن، فقدرة الله نافذة.

﴿٥٦﴾ ﴿ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾

قال: أنا لا أيأس، فلا ييأس من رحمة الله إلا من انحرف عن دينه وأخطأ طريق الهداية.

﴿٥٧﴾ ﴿ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾

قال إبراهيم لهم: ما الخبر العظيم الذي أرسلكم الله به أيها الملائكة الكرام؟

﴿٥٨﴾ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴾

قالوا: إن الله أرسلنا لتدمير قوم لوط الفجرة الكفرة أهل الأفعال الشنيعة.

﴿٥٩﴾ ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

لكنَّ لوطًا وأهله في أمان من الهلاك فلن يصيبهم شرٌّ فهم في حفظ الله.

﴿٦٠﴾ ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾

أما زوجته الكافرة فقد قضى الله بإهلاكها مع الهالكين، فلا حسب ولا قرابة تنفع مع الكفر.

﴿٦١﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾

فلما جاءت الملائكة إلى لوط لإهلاك قومه ونجاته.

﴿٦٢﴾ ﴿ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾

قال لوط للملائكة: إنكم قوم غير معروفين فعرِّفوني بكم من أنتم؟

﴿٦٣﴾ ﴿ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾

قالوا: لا تخف يا لوط، فنحن ملائكة أرسلنا الله بالعذاب الذي كان يشك فيه قومك ويكذبون به.

﴿٦٤﴾ ﴿ وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

وجئناك بالحق الذي فيه نجاتك وهلاك قومك، وقد صدقنا فيما قلنا.

﴿٦٥﴾ ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴾

فاخرج - يا لوط - ليلاً ومعك من آمن بك، وسر خلف المؤمنين وهم أمامك لئلا يتخلف منهم أحد فيهلكوا، واحذروا أن يلتفت منكم أحد ويتأخر، وسيروا إلى ما أمركم الله به لتأمنوا من العذاب.

﴿٦٦﴾ ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴾

وأوحى الله إلى لوط أن العذاب سوف يدمر قومك جميعًا ويستأصلهم عن آخرهم مع طلوع الفجر.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾

وجاء سكان مدينة لوط لما سمعوا أن عنده ضيوفًا يبشر بعضهم بعضًا؛ لفعل الفاحشة بالضيوف!!

﴿٦٨﴾ ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾

قال لوط لقومه: هؤلاء ضيوفي وهم في حمايتي وحفظي فلا تفضحونِ بما أردتم من عمل شنيع.

﴿٦٩﴾ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴾

وخافوا عذاب الله واتركوا ضيوفي ولا تعرضوني للذل والخزي والهوان بإيذاء ضيوفي.

﴿٧٠﴾ ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

قال قوم لوط له: أما سبق أن حذرناك أن تمنع أحدًا من العالمين منا؟ فاترك الناس ولا تتدخل في شؤونهم.

﴿٧١﴾ ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾

قال لوط لقومه: هؤلاء بناتي فتزوجوهن واكتفوا بالنساء واتركوا فعلكم القبيح من إتيان الرجال.

﴿٧٢﴾ ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾

يقسم الله - تعالى - بحياة محمد ﷺ أن قوم لوط في جهل عظيم وغفلة شديدة، وعمى عن الحق، وفي الحيرة يترددون.

﴿٧٣﴾ ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴾

فحلَّت بقوم لوط صاعقة العذاب وقت طلوع الشمس بعد أن خرج لوط وأهله في الليلة السابقة.

﴿٧٤﴾ ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾

فقلب الله أعلى قراهم وجعلها سافلها، وأنزل عليهم من السماء حجارة من طين متصلِّب متين مزق أجسامهم.

﴿٧٥﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾

إن في ما أصاب قوم لوط عظةً للمتعظ، وعبرةً للمعتبر، فهي من أعظم النكال، وأشد العذاب.

﴿٧٦﴾ ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾

وإن قراهم على طريق واضح يراها المسافرون ويشاهدها المارُّون، فهل من معتبر؟

﴿٧٧﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

إن في إهلاك قوم لوط دليلاً واضحًا للمصدقين بآيات الله ينتفعون به.

﴿٧٨﴾ ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾

ولقد كان قوم شعيب أهل القرية الملتفة ظالمين لأنفسهم بالكفر والإعراض عن سبيل الله.

﴿٧٩﴾ ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

فانتقم الله من قوم شعيب بالرجفة وعذاب يوم الظلة، وإن قرى قوم لوط وشعيب لفي طريق واضح يراها الناس إذا سافروا فيتعظون.

﴿٨٠﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

ولقد كذّبت ثمود صالحًا، وهم أصحاب الوادي الذي كانوا به وهو وادي الحجر، فكأنهم لما كذّبوا صالحًا كذبوا جميع المرسلين.

﴿٨١﴾ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

وبيّن الله لقوم صالح آياته الدالة على وحدانيته وعلى صحة ما جاء به صالح من الرسالة، ومنها الناقة، فلم ينتفعوا بهذه الآيات، وكانوا صادين عن الاعتبار، مبتعدين عن الحق.

﴿٨٢﴾ ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾

وكان قوم صالح ينحتون الصخور في الجبال بيوتًا لهم وهم آمنون من أن تسقط عليهم أو تخرب، فما نفعتهم قوتهم وما استمر أمنهم لما كفروا بربهم.

﴿٨٣﴾ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾

فأحرقتهم صاعقة العذاب مع الصباح الباكر فهلكوا جميعًا.

﴿٨٤﴾ ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

فما منعهم من عذاب الله ما جمعوا من الأموال وما بنوا من البيوت، فقوة الله أعظم وعذابه أشد.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾

وما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق الدال على تمام خلقه وحسن صنعه، وأنه مستحق للعبادة وحده لا شريك له، وأن يوم القيامة لقادم لا محالة في وقوعه ليجازي كل عبد بما عمل، فيا أيها النبي: اعف عن هؤلاء المكذبين، وتجاوز عن مؤاخذتهم بإساءتهم، فالله سوف يتولى حسابهم.

﴿٨٦﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

إن الله وحده هو الخلاق لكل مخلوق، أنشأه من العدم وصوره على أحسن صورة، العليم بما خفي وظهر وأسر وجهر، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عن علمه غائبة.

﴿٨٧﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾

ولقد آتى الله محمدًا ﷺ وأكرمه بفاتحة الكتاب الشافية الكافية التي تكرر في كل صلاة، وآتاه القرآن العظيم في لفظه ومعناه وإعجازه وبلاغته، وهي من أعظم النعم وأجل المنن.

﴿٨٨﴾ ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

لا تنظر بعينيك - أيها النبي - ولا تتمن ما متعنا به الكفار من متع زائلة كمتاع الأنعام وحرموا الهداية للإسلام، ولا تحزن على كفرهم فذنوبهم عليهم، وتواضع للمؤمنين بلين الجناب وحسن الخطاب.

﴿٨٩﴾ ﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾

وقل - أيها النبي - للناس أنا المنذر المحذّر من عذاب الله، الدال على الله، المبين آياته، الناصح الأمين على الوحي.

﴿٩٠﴾ ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾

مثلما أنزلنا على الذين قَسَّموا القرآن وفرقوه فآمنوا ببعضه وكفروا ببعض قد سبق أن أنزلنا على اليهود والنصارى وغيرهم فاختلفوا في الكتاب، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعض.

﴿٩١﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾

وهؤلاء القوم هم الذين تفرقوا في حكمهم على القرآن، فمنهم من قال: سحر أو شعر أو كهانة؛ زورًا من عند أنفسهم ليصدوا البشر عن الذكر الحكيم والرسول الكريم.

﴿٩٢﴾ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

فوالله العظيم ليحاسبنَّهم الله على ما قالوه وما فعلوه يوم العرض الأكبر.

﴿٩٣﴾ ﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وسوف يسألهم الله عن افترائهم في القرآن واختلاف قولهم فيه ورميهم الحق بالباطل كذبًا وزورًا.

﴿٩٤﴾ ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

فاجهر - أيها النبي - بدعوتك إلى الحق التي أمرك الله بإبلاغها، ولا تخف من الكفار، فأنت على الحق وهم على الباطل، وفيه الشجاعة في تبليغ الحق والتقيد بالشريعة وعدم رهبة البشر.

﴿٩٥﴾ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾

سوف يحميك الله - أيها النبي - من الساخرين الكافرين بهزيمتهم وإحباط كيدهم، ثم التنكيل بهم في الآخرة.

﴿٩٦﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

هؤلاء الكفار الذين اتخذوا شركاء من دون الله ولم يوحدوه بالعبادة، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم إذا عادوا إلى ربهم.

﴿٩٧﴾ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

لم يخفَ علينا ما يؤذيك ويؤلم نفسك ويضيق به صدرك بسبب ما يقوله أولئك المستهزئون المشرعون.

﴿٩٨﴾ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

فلا يحزنك قولهم وقل: سبحان الله وبحمده وكن من المصلين المتواضعين، والتسبيح والحمد والصلاة شفاء مما تضيق به الصدور في دار الغرور.

﴿٩٩﴾ ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

واعبد ربّك وأطعه طاعة تبقى معك ما بقيت حياتك حتى يأتيك الموت الذي توقن به.

مكية

ترتيبها ١٦

# سورة النحل

آياتها ١٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

قربت القيامة - أيها المنكرون لها - فلا تستعجلوا العذاب استهزاءً به وسخرية منه فسوف يقع، تنزَّه الله وتقدَّس عن شرك المشركين.

(٢) ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾

الله ينزل الملائكة بالوحي من أمره على من يشاء من عباده الأنبياء، فيرسلهم بتحذير الناس من الشرك ودعوتهم إلى توحيد الله لا شريك له، والدعوة لتقوى الله بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر.

(٣) ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

الله خلق السموات والأرض بالحق؛ لتكون دليلاً للناس على عظمة الله وحكمته وبديع صنعه، وأنه وحده مستحق للعبادة، تنزَّه الله عن شرك من أشرك به.

(٤) ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

خلق الله الإنسان من ماء مهين، فإذا هو يعادي ربه ويجادل في آياته وينكر البعث ويكذب الرسل، وقد نسي أصله وضعفه.

(٥) ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

والله - سبحانه - خلق لكم الأنعام من إبل وبقر وغنم، وجعل لكم من أصوافها وأشعارها وأوبارها دفئًا لكم في البرد، وتنتفعون بجلودها وتأكلون لحومها وتركبون ظهورها.

(٦) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾

ولكم - أيها الناس - فيها زينة تدخل البهجة على نفوسكم حينما تعود أنعامكم في المساء إلى بيوتكم، وحينما تخرج في الصباح من بيوتكم للرعي.

(٧) ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

وسخَّر الله لكم الأنعام لحمل أمتعتكم إلى البلدان البعيدة التي لا تستطيعون الوصول إليها إلا بمشقة عظيمة، إن ربكم لطف بكم ورحم ضعفكم فسخر لكم ما يعينكم، فبرأفته يجلب لكم المنفعة، وبرحمته يدفع عنكم المشقة.

(٨) ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

وخلق الله لكم الخيل والبغال والحمير لتركبوا على ظهورها، وجعلها جمالاً لكم في المواكب والأسفار لما فيها من منظر حسن، والله يخلق لكم من وسائل الركوب وغيرها ما لا علم لكم به مثلما جدَّ من وسائل حديثة، فكل ذلك من فضل الله ونعمته.

٩ ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

وعلى الله وحده بيان الطريق المستقيم لتهتدوا وتسلكوه، وهو طريق الإيمان بالله الذي دعت إليه الرسل، ومن الطريق ما هو مائل منحرف لا يوصل إلى مقصود ولا ينجي من هلاك، وهو كل طريق ضال يخالف طريق الهداية من طريق أهل الكفر والفساد والزيغ والإلحاد، ولو أراد الله أن يهدي جميع الناس لفعل، ولكن لحكمة منه بالغة هدى من شاء، وأضل من شاء.

١٠ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾

والله وحده الذي أنزل لكم من الغمام ماءً مباركًا طهورًا تشربون منه، وأنبت لكم به شجرًا وزرعًا ترعى فيه دوابكم وتعود منافعها إليكم.

١١ ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

والله يخرج لكم بماء الغمام أشجار الزيتون والنخيل والأعناب، ومن سائر أنواع الثمار والأشجار والخضار، إن في إنبات ذلك وسقيه وطلعه وثمره دلالات واضحات لمن يتأمل ويعتبر فيؤمن.

١٢ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾

والله سخر لكم الليل للمنام، والنهار للمعاش، وجعل الشمس مضيئةً لكم والقمر نورًا؛ لتعرفوا السنين والشهور والأيام والحساب، وجعل النجوم في السماء مسخرات لكم لمعرفة الأوقات والاهتداء في الظلمات وإنضاج الثمرات، إن في خلق هذه الأجرام لبراهين ساطعة لقوم يعقلون.

١٣ ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴾

والله وحده سخر لكم جميع مخلوقاته في الأرض من الحيوان والنبات والجماد مما تختلف أشكاله وألوانه ومذاقاته، وهذا الخلق مع اختلاف الأنواع والأصناف فيه عظة للمتعظين، وعبرٌ للمعتبرين، فهو من أعظم الدلالات على توحيد الله، وأنه يستحق إفراده بالعبودية سبحانه.

١٤ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

وهو - سبحانه - الذي سخر البحر للبشر ليأكلوا من سمكه لحمًا طريًا ويستخرجوا من لؤلئه ومرجانه زينةً، وهم يشاهدون السفن العظيمة على ظهر البحر تسافر وتعود بمنافعهم، ويسافرون عليها لطلب العلم والتجارة وجميع المصالح؛ لعلهم يشكرون الله على هذه النعم العظيمة بالإيمان به وعبادته وحده عز وجل.

١٥ ﴿ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾

والله وحده ثبت الأرض بالجبال لئلا تضطرب وتتحرك، وجعل فيها أنهارًا عذبة للشرب والغسل وسقي الدواب والنبات، وجعل في الأرض طرقًا لتكون معالم للناس حتى لا يضلوا في فجاج الأرض؛ فيسلكوها في مقاصدهم.

١٦ ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾

والله جعل أدلة في النهار للناس يستدلون بها على الطرق مثلما جعل النجوم أدلة في الليل يهتدون بها في سفرهم.

١٧ ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

هل يُعقل أن يستوي من يخلق هذه الأشياء ويسخرها لكم كمن لا يستطيع ذلك في استحقاق العبودية والألوهية؟ أفلا تتذكرون قدرة الله على الخلق وحده فتوحِّدوه ولا تشركوا به آلهةً أخرى.

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (١٨)

ومهما اجتهدتم في حصر حساب نعم الله التي أنعم بها عليكم لن تستطيعوا ذلك؛ لكثرة أنواعها وأصنافها ومنافعها، إن الله كثير الغفران لكم على تقصيركم في شكر النعم، واسع الرحمة لا يقطعها عنكم لمعاصيكم ولا يعاجلكم بالعقوبة مع عصيانكم

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ (١٩)

والله وحده يطلع على كل أفعالكم ما خفي منها وما ظهر، وما أُسرَّ وما جهر، وسوف يحاسبكم عليها.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ﴾ (٢٠)

والأصنام والأوثان التي يعبدها الكفار لا تخلق شيئًا، فهي مخلوقة صنعها الكفار ثم عبدوها، فكيف يُعبد المخلوق العاجز، ويُترك الخالق الغني القوي جل في علاه.

﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ (٢١)

هذه الأوثان والأصنام جمادات لا روح فيها ولا حياة لها، ولا تعلم الزمن الذي يخرج الله عابديها من القبور ليدخلها معهم في نار جهنم.

﴿ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (٢٢)

والإله المستحق للعبادة هو الله الذي لا إله إلا هو الواحد الأحد، لا شريك له ولا رب سواه، فالمكذبون بالبعث بعد الموت ينكرون وحدانية الله ويجحدون ألوهيته سبحانه؛ لعدم خوفهم من العقاب، وهم يتكبرون عن قبول الحق وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ (٢٣)

حقًا إن الله يعلم ما أخفته سرائرهم، وأسرته ضمائرهم من نيات واعتقادات، وما أظهروه من أقوال وأعمال وأحوال، وسوف يحاسبهم على ذلك، إن الله لا يحب من تكبر على طاعته، وأبى الانقياد لعبادته، وسوف يجازيه على هذا العمل.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤)

وإذا سئل الكفار ماذا أنزل الواحد القهار على النبي المختار، قالوا كذبًا وزورًا: ما عنده إلا قصص السابقين، وأباطيل القدامى وأخبار من سبق، وليست وحيًا من عند الله.

﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٢٥)

سيجعل الله عاقبتهم يوم العرض الأكبر أن يحملوا ذنوبهم كاملة غير ناقصة، لا يتجاوز الله عنهم شيئًا منها، ويحملوا معها ذنوب من اتبعوهم وكانوا هم سببًا في إضلالهم وصدهم عن الإيمان، ألا قبحًا لهم ولما يحملونه من ذنوب.

﴿ قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (٢٦)

قد كاد الكفار السابقون لرسلهم المكايد، فأحبط الله كيدهم وزلزل بنيانهم من أساسه وقواعده، وسقط عليهم السقف من فوقهم، فأتاهم الدمار من حيث لا يشعرون، وباغتهم الهلاك من حيث لا يحتسبون، وصبّحهم العذاب وهم آمنون.

﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (٢٧)

ثم يوم القيامة يفضح الله الكفار ويهينهم في النار، ويقول لهم -توبيخًا-: أين الذين جعلتموهم لي شركاء في العبادة ليمنعوكم من هذا العذاب، وقد كنتم تحاربون الرسل وأتباعهم من أجلهم؟ قال أهل العلم والإيمان: إن الهوان والذل والصغار على الكفار في هذا اليوم العظيم.

﴿٢٨﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

الذين تقبض الملائكة أرواحهم من الكفار وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك بالله، فاستسلموا لأمر الله وحده بعدما عاينوا الموت، وجحدوا ما كانوا يشركون به، وأنكروا ما عملوه من الذنوب، فيقال لهم: كذبتم، بل أنتم عصاة مذنبون، إن الله يعلم ما فعلتموه من الذنوب وسيحاسبكم عليها.

﴿٢٩﴾ ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

فادخلوا - أيها الكفار - أبواب النار ماكثين فيها أبدًا، فبئست النار مقرًا لأهل الكبر والعناد، ودارًا لأهل الزيغ والإلحاد.

﴿٣٠﴾ ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

وإذا سئل المؤمنون بالله ورسوله: ماذا أنزل الله على رسوله ﷺ؟ قالوا: أنزل الله عليه الحق والهدى وكل صلاح وتقوى، للمؤمنين الذين يعملون الصالحات ويسارعون في الخيرات كرامة عظيمة، وفوز كبير من العز والتمكين في الحياة الدنيا وما يعطونه في الآخرة من النعيم المقيم، والأجر العظيم خير مما يعطونه في الدنيا، ولنعم دار المتقين جنات الخلد عند الله تعالى.

﴿٣١﴾ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

جنات خلود واستقرار وأمن وبهجة للأبرار يسكنونها ماكثين فيها أبدًا، تجري من تحت دورها وقصورها وأشجارها الأنهار، أعدَّ الله لهم فيها ما تشتهيه أنفسهم، وبمثل هذه الكرامة العظيمة يثيب الله أولياءه ممن اتقاه وخاف مقامه وأعدّ العدة للقائه.

﴿٣٢﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وهم الأبرار الذين تقبض الملائكة أرواحهم ونفوسهم طاهرة من الشرك، تحييهم الملائكة بقولهم: سلام عليكم من كل آفة، وأمن لكم من كل مخافة، ادخلوا جنات النعيم بما كنتم تعملونه من الإيمان وطاعة الديان ومحاربة أولياء الشيطان.

﴿٣٣﴾ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ما ينتظر الكفار إلا نزول الملائكة لقبض أرواحهم على الكفر أو يأتي هلاكهم من الله، ومثلما كذَّب هؤلاء الكفار كذَّب الكفار من قبل، فأهلكهم الله ولم يظلمهم بإهلاكهم، وإنما جازاهم على كفرهم، فهم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله ومحاربة الرسل.

﴿٣٤﴾ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

فأهلكهم الله بالعذاب جزاء أفعالهم الشنيعة التي فعلوها، وأحاط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه، فلم يبق لهم باقية.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

وقال الكفار: لو أراد الله أن نعبده وحده ما عبدنا أحدًا غيره لا نحن ولا آباؤنا من قبل ولا حَرَّمنا شيئًا لم يُحَرِّمه علينا، وبمثل هذا الاعتراض الكاذب اعترض من سبقهم من الكفار، وهذا كذب، فإن الله أمرهم بالإيمان ونهاهم عن الكفر، وبيَّن لهم طريق الهداية والغواية، وجعل لكل منهم مشيئة وإرادة يعملون بها فاحتجاجهم بالقضاء بعد إرسال الرسل باطل، وقد قامت عليهم الحجة بالإنذار، وليس على الأنبياء إلا البيان الواضح والإرشاد إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

﴿٣٦﴾ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

ولقد أرسل الله في كل أمة سبقت رسولاً يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك من عبادة الأصنام والأوثان وغيرها، فمنهم فريق وفَّقهم الله للاستجابة واتباع الرسل، ومنهم فريق أضلَّهم الله فكفروا به وكذبوا رسله، فسافِروا في نواحي الأرض، وشاهدوا آثار المعذَّبين، وانظروا بيوتهم الخاوية لتعتبروا وتتعظوا.

﴿٣٧﴾ ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

مهما اجتهدت - أيها النبي - وحرصت على هداية هؤلاء الكفار فإن الله لا يهدي من آثر الضلالة وقد كتب الله عليه الشقاء، وليس للكفار أحدٌ يدفع عنهم عذاب الله ويمنعهم من عقابه.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وحلف الكفار بكل الأيمان المغلظة: إن الله لا يعيد من يموت حيًا!! بعدما فني في قبره. بلى سيعيدهم الله أحياءً، وعدًا حقًا سبق من الله، والله لا يخلف وعده، ولكن أكثر الناس ممن كذَّب بقدرة الله لا يعلمون قدرته على البعث، فهم ينكرون ذلك جهلاً وعنادًا.

﴿٣٩﴾ ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾

والله يعيد العباد ليوم المعاد؛ ليبيّن لهم حقيقة الإحياء بعد الموت التي اختلفوا فيها، فيثيب المؤمنين على إيمانهم، ويعاقب الكفار على كفرهم، فيعلم المؤمنون أنهم على حق، ويعلم الكفار أنهم على باطل يوم حلفوا ألاَّ بعث ولا نشور.

﴿٤٠﴾ ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

إن البعث بعد الموت أسهل على الله من النشأة الأولى، - والكل عليه هينٌ - فإذا أراد الله شيئًا فإنما يقول له: "كن" فيكون هذا الشيء كائنًا موجودًا.

﴿٤١﴾ ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

والذين خرجوا من أوطانهم للنجاة بدينهم في سبيل ربهم بعدما وقع عليهم الأذى ليسكنهم الله دارًا حسنةً، ويزيدهم من النصر والتمكين، والأجر الذي أعدَّه الله لهم في الآخرة أكبر، من الخلود في جنات النعيم مع الثواب العظيم، ولو علم من ترك الخروج في سبيل الله للنجاة بدينه ما عند الله من الثواب العظيم والفوز والنعيم ما تخلف منهم أحد عن ذلك.

﴿٤٢﴾ ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

والمهاجرون في سبيل الله هم الصابرون على فعل الأوامر واجتناب النواهي وتحمل مرِّ القضاء، وهم على ربهم يعتمدون، وإليه يفوِّضون، وبه يثقون، فكان جزاؤهم هذا الفوز الأكبر.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وما أرسل الله قبلك - أيها النبي - من الرسل إلا رجالاً من الناس لا من الملائكة، يوحي إليهم بشريعة من عنده، فإن كنتم شاكين فاسألوا أهل الكتب المنزَّلة من قبل؛ كاليهود والنصارى يخبرونكم أن أنبياءهم كانوا رجالاً ولم يكونوا ملائكة، ففي الآية عموم، وعلى كل سائل عن مسألة في الشريعة أن يسأل علماء الملة الراسخين في العلم.

﴿٤٤﴾ ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وأرسل الله الرسل المتقدمين بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة والكتب المنزلة، وأنزل الله عليك - أيها النبي - القرآن الحكيم؛ لتوضح للأمة معانيه وتبيّن لهم ما أُجمِلَ فيه؛ لعلهم بعد البيان أن يتدبروا ويتفقهوا فيه.

﴿٤٥﴾ ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

هل أمن الكفار أهل المكائد والحيل أن يخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون، أو ينـزِّل الله عليهم العذاب من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟

﴿٤٦﴾ ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

أو ينـزِّل الله عليهم العذاب وهم يتقلبون في أعمالهم من معاش وسفرٍ وتجارة، فلا يفوتون على الله ولا يهربون من عذابه ولا ينجون من عقابه، بل هم في قبضته وتحت تصرفه.

﴿٤٧﴾ ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

أو يأخذ الله الكفار بالعذاب وهم في حالة خوف من العقاب، وجلين مما يحل بهم من الأعاصير والموت وذهاب الأموال، ونقصها فإن الله - عز وجل - رؤوف بخلقه، يمهل العاصي ولا يعاجله، ويمتع الكفار في هذه الدار، رحيم بالخلق، يقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، ويمهل لهم في المدة.

﴿٤٨﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾

لماذا عمي الكفار عن النظر إلى خلق الواحد القهار وما فيه من عبر لأولي الأبصار، كالسماء والأرض والبحار، والشمس والقمر والأنهار، والجبال والنجوم والليل والنهار، والأشجار والثمار وظلها يميل ذات اليمين وذات الشمال مع تحرك الشمس نهارًا، والقمر ليلاً، كل هذه المخلوقات منقادة لأمر الله خاضعة لعظمته، وهي مسخرة مدبرة مقهورة تحت سلطان الله تعالى.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

ولله وحده يسجد كل ما في السموات والأرض من كل دابة، والملائكة يسجدون لله في تواضع وذلةٍ وانكسار، وخصَّهم بالذكر لامتثالهم للأمر وجلالة القدر، ولم يأب السجود لله إلا عصاة الجن، وعصاة بني آدم.

﴿٥٠﴾ ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

يخاف الملائكة ربهم الأعلى، وهو الذي فوق العباد مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله، ويفعل الملائكة ما يأمرهم الله به فلا يعصون الأمر ولا يتعدونه.

﴿٥١﴾ ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾

وأمر الله عباده على ألسنة رسله أن لا يعبدوا إلهين اثنين، إنما يعبدون الله الواحد الأحد لا إله إلا هو ولا معبود بحقٍ سواه لا شريك له، وعليهم أن يخافوه وحده دون سواه.

﴿٥٢﴾ ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾

ولله وحده خلقًا وملكًا ورزقًا وتدبيرًا كل ما في السموات والأرض، وله وحده الدين خالصًا دائمًا، أفيصح لكم أن تخافوا غير الله وأن تعبدوا سواه، وهو أحق أن يُعبد، وأولى أن يُوحَّد.

﴿٥٣﴾ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾

وما بكم - أيها الناس - من نعم ظاهرة وخَفيَّةٍ كبيرةٍ وصغيرةٍ من هداية وأمن وعاقبة ومال وولد وغير ذلك فهي من الله وحده، وهو المنعم المتفضل عليكم لا سواه، وإذا نزل بكم البلاء ومسَّتكم الضراء وحلَّ بكم المرض والفقر والعسر، فأنتم لا تَدْعُون إلا الله وحده، تضجون إليه بالدعاء وقت الشدائد.

﴿٥٤﴾ ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

ثم إذا أزال الله عنكم الشدائد وأبدل بعد العسر يسرًا إذا طائفة منكم تشرك بالله غيره، فتعبد سواه وتجحد نعمه وتكفر بإحسانه.

(٥٥) ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

ليجحدوا نعم الله عليهم وأياديه لديهم بإسداء النعماء وصرف البلاء، فليتمتعوا بدنياهم الزائلة الفانية، فسوف يظهر لهم سوء صنيعهم يوم الحساب، يوم يذوقون العذاب.

(٥٦) ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾

ومن شنيع أفعالهم أنهم يصرفون قسمًا من أموالهم التي رزقهم الله إياها للأصنام التي لا تنفع ولا تضر، تالله ليسألنهم الله يوم القيامة عن هذا الزور والبهتان من صرف عبادة الرحمن للأوثان والشيطان.

(٥٧) ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾

وينسب الكفار البنات إلى الله كذبًا فيقولون: الملائكة بنات الله - تعالى الله عن هذا الكذب - وتقدَّس من هذا الزور، أما هم فينسبون إلى أنفسهم البنين، قاتلهم الله على هذا البهتان.

(٥٨) ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

وإذا جاء الكافر خبرٌ بولادة بنت له اسود وجهه، وضاق صدره، وامتلأ غمًا وهمًا.

(٥٩) ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

يستتر من أصحابه كراهية أن يلقاهم للعار الذي يجده في نفسه بسبب ابنته، وهو متردد أيترك البنت حية ويصبر على الذل والهوان، أم يدفنها حيةً في التراب خوفًا من العار؟ ألا قبَّح الله هذا الحكم الذي حكموه حيث جعلوا البنات لله - جل في علاه - والبنين لهم!!

(٦٠) ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

الأوصاف القبيحة والأمثال الشنيعة للكفار الفجار، أما الواحد القهار فله الصفات العُلى من الكمال والجلال والجمال والغنى والعظمة، وهو الذي عز فلا يغالب، وقهر فلا يحارب، ولا يعجزه فار، ولا ينجو منه هارب، وهو حكيم في شرعه وفي صنعه.

(٦١) ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

ولو أن الله يؤاخذ من كفر من البشر لأفنى جميع من على الأرض فما تحرك متحرك، لكن يمهلهم ويحلم عليهم إلى أجل وقَّته - سبحانه - فإذا انتهى الأجل أخذهم على عجل، فلا يتأخرون عن الوقت المحدود، ولا يتقدمون على الأجل المعدود.

(٦٢) ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾

ومن شنيع أفعالهم أنهم ينسبون البنات إلى الله وهم يكرهون نسبتها إلى أنفسهم، ويدعون أن العاقبة الحميدة لهم، حقًا إنهم سوف يُخلدون في النار وإنهم فيها متروكون منسيون.

(٦٣) ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

تالله لقد أرسل الله قبلك - أيها النبي - رسلاً إلى أقوامهم، فزين لهم الشيطان عبادة الأوثان، وصدَّهم عن عبادة الرحمن، فهو متولي أمورهم، يوردهم الغواية، ويمنعهم الهداية، ولهم عذاب النار عذاب موجع شديد لا يُطاق.

(٦٤) ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

وما أنزل الله عليك - أيها الرسول - القرآن إلا لتوضح للأمة ما اختلفوا فيه من العقائد والأحكام؛ ليتضح الحق ولتقوم الحجة، ويهتدي من شاء الله هدايته، ويرحم الله بهذا الكتاب من آمن به وتدبره وعمل بما فيه، فالنجاة والسعادة والهداية والرحمة كلها في القرآن.

﴿٦٥﴾ ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾

والله وحده أنزل من الغمام ماءً فأخرج به النبات الأخضر من الأرض الجدباء اليابسة، إن في إنزال الماء من السماء وإنبات الأرض الجرداء برهانًا على قدرة الحكيم الخبير، وعلى وحدانية الواحد الأحد. لقوم يسمعون العظات فيتدبرونها ويعملون بما دلَّت عليه.

﴿٦٦﴾ ﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾

وإن لكم - أيها البشر - في الإبل والغنم والبقر، لعبرةً لمن اعتبر، فانظروا كيف يسقيكم الله من ضروعها لبنًا صافيًا أبيض لذيذًا من بين فرث وهو ما في كرش الدابة، وبين دمٍ ومع ذلك يخرج اللبن خالصًا من الشوائب لذةً للشاربين.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾

ومن نعم الله عليكم - أيها الناس - ما تنتفعون به من ثمر النخل والعنب؛ فتجعلونه خمرًا مسكرًا - وهذا قبل التحريم - وطعامًا طيبًا لذيذًا، إن في هذه النعم لبرهانًا على قدرة الله للعباد الذين يعقلون العظات، وينتفعون من العبر.

﴿٦٨﴾ ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾

والله وحده هو الذي ألْهَم النحل بأن تجعل بيوتها في الجبال والشجر وبما يبني البشر من المنازل والأخشاب.

﴿٦٩﴾ ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وأوحى الله إلى النحل أن تأكل من كل ثمرة طيبة تشتهيها وتسلك ذاهبة آيبة في الطرق التي سهلها الله - عز وجل - فلا تضل النحلة في ذهابها وعودتها، يُخرج الله من بطون النحل عسلاً مصفى أبيضَ وأصفرَ وأحمرَ يسرُّ الناظرين، ويلذ طعمه للآكلين فيه شفاء للبشر من المرض والضر، إن في خلق النحل وما يصنعه من بيوت وما يأكله من ثمرات وما يخرجه من عسل؛ برهانًا عظيمًا على قدرة الحكيم لمن له عقل يتفكر ويعتبر ويتدبر.

﴿٧٠﴾ ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾

والله وحده سبحانه خلقكم من العدم، ثم يميتكم إذا انتهت آجالكم، وبعضكم يهرم ويُخرِّف ويصبح كالطفل لا يعلم شيئًا مما كان يعلمه، وينسى ما يحفظه، ويجهل ما يعرفه، إن الله عليم أحاط علمه بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، قدير أوجد من العدم، وأمات بعد الإحياء، وأحيا بعد الإماتة جل في علاه.

﴿٧١﴾ ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾

والله وحده فضَّل بعض الناس على بعض في الرزق، فمنهم غني وفقير، ورئيس ومرؤوس، وسيد ومسود؛ ولهذا لا يعطي المالكون مملوكيهم ولا الرؤساء مرؤوسيهم ما يصيرون به مثلهم في المكانة والجاه والمال؛ لأنه لا يرضى المالك أن يساويه مملوكه، فلماذا رضوا أن يجعلوا لله شركاء من عبيده يساوونه في الألوهية ويقاسمونه في العبودية، إن هذا ظلم عظيم ونكران لنعمة الله، وجحود لفضله وعطائه عز وجل.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾

والله - سبحانه - خلق لكم من جنسكم زوجات لتستريح نفوسكم معهن، ويتم الأنس والراحة بين الزوج والزوجة، وخلق لكم من الزوجات الأبناء، ومن الأبناء الحفدة، ورزقكم من سائر الأطعمة الطيبة والأشربة اللذيذة من الحبوب والثمار والخضراوات والفواكه واللحوم إلى غير ذلك؛ لتستعينوا بها على طاعة الله، أفبالزور والكذب من ألوهية

الأصنام والأوثان يؤمن الكفار، وبنعم الله الجليلة وأياديه الجزيلة يجحد هؤلاء الأشرار الفجار ولا يشكرون الواحد القهار ولا يفردونه بالألوهية وهو المستحق لها؛ لأنه الملك الجبار؟!

﴿٧٣﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

ويعبد الكفار أصنامًا وأوثانًا لا ترزقهم شيئًا من السماء كالغيث، ولا تعطيهم شيئًا من الأرض كالحبوب والثمار، فهي لا تملك شيئًا ولا تعطي أحدًا، ولا تقدر على التملك والعطاء، إنها معبودات جامدة عاجزة.

﴿٧٤﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

فإذا تيقنتم - أيها الناس - أن الأصنام والأوثان لا تنفع ولا تضر، فلا تجعلوها مماثلة ومشابهة لله جل وعلا؛ لأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فأنتم لا تعلمون ما فعلتموه من خطأ عظيم وذنب جسيم.

﴿٧٥﴾ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

الله يضرب مثلاً يبين فيه قبح عقيدة المشركين برجل رقيق مملوك لرجل آخر لا يستطيع التصرف، ورجل حر له مال يتصرف فيه يتصدق منه في الخفاء والعلن، فهل يستوي الرقيق المملوك المحجور عليه مع الحر المتصرف الذي ينفق ماله؟ فكذلك الله الخالق الرازق المدبر المتصرف في خلقه لا يستوي مع عبيده العاجزين القاصرين الفقراء، فكيف تسوون - أيها الكفار - بين العبيد والواحد القهار؟! الحمد والثناء لله وحده، فأكثر الكفار لا يعلمون أن الحمد والثناء والنعمة لله، وأنه المستحق وحده للعبودية، وأنه لا إله إلا هو.

﴿٧٦﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

وضرب الله مثلاً آخر لقبح عقيدة الكفار برجلين: أحدهما أخرس لا يتكلم، أصم لا يفهم، لا يستطيع نفع نفسه ولا نفع غيره، لا خير فيه ولا نفع من ورائه، وهو حمل ثقيل على والي أمره، إذا كلفه بمهمة لا يقوم بها، فهو لا يقضي حاجة ولا تُرجى منه مصلحة، ورجل آخر ممتع بجوارحه، يقوم بنفع نفسه وغيره، وهو منصف في أموره وأحكامه لتمام عدله، ومنهجه منهج قويم، وهو على طريق مستقيم في اعتقاده وأخلاقه، فهل يستوي الرجلان عند أهل البصائر السوية؟ فكيف - أيها الكفار - تسوون بين الأحجار والواحد القهار؟ والحجارة صماء بكماء عمياء، والله - سبحانه - متكلم سميع بصير منعم قادر، خالق رازق، عليم حليم، تقدست أسماؤه.

﴿٧٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

كل ما غاب في السموات والأرض فالله يعلمه ويطلع عليه، ولا تخفى عليه خافية، وما حالة القيامة في سرعة قيامها إلا كخطفة العين إذا نظرت أو أسرع من ذلك، إن الله على كل شيء قدير، ومن ذلك قدرته على إقامة الساعة ونهاية العالم.

﴿٧٨﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

والله وحده أخرجكم أطفالاً من بطون الأمهات بعد مدة الحمل، لا يدري أحدكم عن شيء مما حوله، وجعل لكم وسائل العلم والإدراك من سمع وبصر وقلوب، عسى أن تشكروا الله بالتوحيد وتفردوه بالعبادة.

﴿٧٩﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أما نظر الكفار نظر تدبر إلى الطير ذللها الله في السماء للطيران بمشيئته وقدرته، مَنْ الذي يمسكها أن تقع من السماء على الأرض إلا الله وحده، إن في خلق الطير وطيرانها وإمساكها في الجو برهانًا واضحًا على قدرة الله لعبادٍ يؤمنون بوحدانية الله ويتفكرون في بديع صنعه.

﴿٨٠﴾ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

والله وحده هو الذي هيأ لكم منازل للراحة والسكنى والاستقرار مع أهلِكُم في حالة الحضر والإقامة، وجعل لكم في حالة السفر والارتحال خيامًا وقبابًا من شعر الأنعام وجلودها؛ ليكون حملها عليكم خفيفًا وقت الارتحال، ويسهل عليكم نصبها زمن الإقامة، وجعل لكم من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثًا وأمتعة وأكسية وألبسة وأردية وأغطية وملاحف وبيوت تستخدمونها وتنتفعون بها حتى الموت.

﴿٨١﴾ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾

والله وحده جعل لكم ما تستظلون به من حرارة الشمس كالأشجار وغيرها، وجعل لكم الجبال مغارات وكهوفًا تسكنونها وقت الحاجة، وجعل لكم ثيابًا من القطن والصوف وغيرهما من أنواع الأقمشة تلبسونها تمنعكم من أذى الحر والبرد، وجعل لكم دروعًا من الحديد تحميكم في المعارك من الضرب والطعن والرمي، ومثلما أنعم الله عليكم بنعم الأبدان أنعم عليكم بنعمة الأديان من هداية للإيمان وإنزال القرآن؛ حتى تنقادوا لأمر الله وحده وتعبدوه وتطيعوه ولا تشركوا به شيئًا.

﴿٨٢﴾ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

فإن أعرض الكفار - أيها النبي - عن الإيمان بعد إقامة الحجة عليهم، فلا تحزن من فعلهم، فأنت مأجور على بلاغك، والعذاب واقع عليهم لتكذيبهم، فأنت مبلغ والهادي هو الله وحده.

﴿٨٣﴾ ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

يعرف الكفار نعمة الواحد القهار بإرسال النبي المختار ﷺ، ثم يكذبون بنبوته ويجحدون رسالته، وأكثرهم جاحد معاند، والقليل مؤمن مصدق.

﴿٨٤﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

وتذكروا ما يقع يوم العرض الأكبر على الله، حين يبعث الله رسولاً من كل أمة يشهد لمن آمن منهم ويشهد على من كفر، ثم لا يُسمح للكفار بالاعتذار عند الملك الجبار على ما وقع منهم من كفر وإصرار، ولا يُطالبون في تلك الحال بما يرضي الله من استجابة وتوبة وإيمان فقد فات الأوان.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

وإذا عاين الكفار العذاب في النار فلا يُهوَّن عليهم العذاب ولا يؤخَّر عنهم، ولا يُمهلون بل عذابهم شديد عاجل.

﴿٨٦﴾ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

وإذا أبصر الكفار يوم القيامة أصنامهم وأوثانهم التي عبدوها من دون الله، قالوا حينها: يا ربنا، هؤلاء كنا نعبدهم من دونك ورضوا بعبادتنا لهم، فأنطق الله هذه الآلهة بتكذيب عُبَّادها، وقالت: أيها الكفار: إنكم كاذبون حينما عبدتمونا من دون الله ولم نأمركم بذلك، ولم نرض هذا العمل، ولا أخبرناكم أننا نستحق العبادة، فاللعنة والسخط والعذاب عليكم.

﴿٨٧﴾ ﴿ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

وأظهر الكفار للملك الجبار الذل والانكسار والاستسلام والصغار، وغابت الأكاذيب التي كانوا يفترونها في الدنيا من أن آلهتهم تنفعهم وتشفع لهم وتدفع عنهم العذاب.

٨٨ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾

الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله ﷺ ومنعوا الناس من الإيمان زادهم الله عقابًا على الكفر، وعقابًا على منع الناس من الهداية، فلهم عذاب على الضلال والإضلال؛ لأنهم أهل إفساد وفساد، وكفر وعناد، وغواية للعباد.

٨٩ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

وتذكروا يوم يبعث الله رسولاً من كل أمة يشهد لمن آمن من قومه ويشهد على من كفر، ويبعث الله محمدًا ﷺ شهيدًا على أمته، فيشهد لمن اتبعه ويشهد على من عصاه، وقد نزَّل الله القرآن على رسوله ﷺ يوضح فيه كل أمر من العقائد والأحكام والأخلاق والآداب والثواب والعقاب، ويهدي به من الضلالة، ويرحم به من آمن به وصدق، ويبشر من اهتدى بخاتمة حميدة وأجر عظيم وثواب كريم في جنات النعيم.

٩٠ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

إن الله يأمر عباده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بالعدل والإنصاف في حقه - سبحانه - بإفراده بالعبودية وعدم الإشراك به، وفي حق خلقه بإعطاء كل ذي حق حقه وعدم بخس أحدٍ شيئًا مما يستحقه ويجب له، ويأمر بالإحسان - سبحانه - في حقه بإجادة عبادته وإحسان طاعته، بمراعاة الإخلاص واتباع السنة، والإحسان إلى الخلق بإيصال ما ينفعهم إليهم من عونٍ ومال ومساعدة غير الواجب على العبد، ويأمر بصلة القرابة وبرهم والإحسان إليهم، وينهى عن كل قبيح وكل عمل شنيع، وينهى عن كل ما ينكره الشرع من الكفر والمعاصي، وينهى عن ظلم الناس والتعدي عليهم، وهو - سبحانه - يعظ عباده ويذكرهم بهذه الشريعة؛ لكي يعملوا بما شرع، ويتركوا المعاصي والبدع، ويلزموا التقوى والورع.

٩١ ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

وعليكم بالوفاء بكل عهدٍ وعقدٍ بينكم وبين الله، وبينكم وبين الناس في ما لا يخالف الشرع، ولا تعودوا بإبطال الأيمان بعد أن أكدتموها بقسمكم بالرحمن، وأنتم حين عاهدتم جعلتم الله كفيلاً وضامنًا على ما قلتم ووعدتم، فاتقوه واخشوه، فهو عليم بما تفعلون، مطلع على ما تصنعون، وسوف يجازيكم في يوم عليه تُعرضون.

٩٢ ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

ولا تنكثوا عهودكم ولا تنقضوا عقودكم فيكون حالكم كحال امرأةٍ غزلت غزلاً وأحكمته ثم نقضته فذهب جهدها سدى وعملها ضياعًا، ولا تجعلوا أيمانكم التي أقسمتم بها عند العهود والعقود خديعة تخدعون بها من عاهدكم وعاقدكم، ولا تنقضوا عهودكم إذا وجدتم طائفة أكثر مالاً ومنفعة لكم من الذين عاهدتموهم من قبل، فالله يختبركم بما أوجب عليكم من الوفاء بالعهود وعدم نقضها، وهو يبين - سبحانه وتعالى - لكم يوم القيامة ما اختلفتم فيه يوم يظهر ما في السرائر، ويعلم ما في الضمائر، فيجازي كلاً بما فعل من أمانة وخيانة.

٩٣ ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ولو أراد الله لجمع قلوبكم على ملةٍ واحدة، ولم يحصل بينكم خلاف ولا تفرق، وكنتم مسلمين مؤمنين، ولكن أراد الله أن يضل من عباده من اختار الضلال على الهدى، فلا يوفقه للهداية عدلاً منه - سبحانه - وأراد أن يهدي من

عباده من اختار الهدى فيوفقه لقبول الحق فضلاً منه - سبحانه - وسوف يسألكم جميعًا عن أعمالكم يوم القيامة من خير وشر، ثم يحاسبكم عليها فيثيب الطائع، ويعاقب العاصي.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾

ولا تجعلوا قسمكم خديعة تخدعون به من أقسمتم له فيغتر بهذا القسم، فيصدقكم وأنتم كاذبون، فتهلكوا بعد أن كنتم في نجاة وأمن مثلما زلقت قدم واقف بعد أن كانت ثابتة، وينالكم عاقبة ما فعلتم في الدنيا؛ بسبب صدكم عن سبيل الحق، ولكم عند الله في الآخرة إذا غدرتم عذابٌ أليم في نار جهنم.

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

ولا تنقضوا العهود وتنكثوا العقود لتأخذوا عِوَضًا منها شيئًا تافهًا حقيرًا من متاع الدنيا، وكل متاع الدنيا حقير، فالذي عند الله من الأجر العظيم على الوفاء أجل وأعظم مما أخذتم من الثمن الزهيد الحقير إذا كان عندكم علم يفرِّق بين النافع والضار، ففرِّقوا بين خيري الدنيا والآخرة.

﴿٩٦﴾ ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

والذي عندكم من حطام الدنيا الفانية زائل ذاهب، والذي عند الله من الأجر العظيم والثواب الكريم ثابت لا يزول، وسوف يثيب الله من صبر على أداء الطاعات واجتناب المحرمات أعظم الثواب وأجل العطاء، فيعطيهم على أدناها كما يعطيهم على أعلاها تفضلاً وكرمًا.

﴿٩٧﴾ ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

من عمل من العباد سواء من الرجال أو النساء عملاً صالحًا بإخلاص ومتابعة وهو مؤمن بالله ورسوله ووعده ووعيده فإن الله يحييه في هذه الدنيا حياةً سعيدةً مطمئنة هنيئة في أمن وراحة ولو كان قليل المال لا جاه له، وسوف يثيبه الله في الآخرة الثواب الجزيل والأجر الجميل في فلاح كبير، وفوز عظيم بجوار رب كريم في جنات النعيم.

﴿٩٨﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾

فإذا أردت - أيها المسلم - أن تقرأ كتاب الله فاستعذ في بدء التلاوة من شرِّ الشيطان المطرود من رحمة الله قائلاً: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" وفيه أن من بدأ من أثناء السورة يلزمه الاستعاذة ولا تلزمه البسملة.

﴿٩٩﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾

إن الشيطان لا يسلطه الله على أولياء الرحمن المعتمدين عليه المفوِّضين أمرهم إليه.

﴿١٠٠﴾ ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾

إنما يسلطه على من اتبعوا سبيله وأطاعوه في معصية الرحمن، والذين يشركون بالله في أقوالهم.

﴿١٠١﴾ ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

وإذا جعل الله آية من القرآن مكان آية أخرى بالنسخ ونحوه - والله الذي خلق العباد أعلم بمصلحة عباده فيما يثبته من الأحكام وينسخه وفق الأحوال والأزمان - حينها يقول الكفار: إنما أنت - أيها الرسول - كاذب على الله، تقول شيئًا لم تُؤمر بقوله، وقد صانه ربه عن ذلك ﷺ فليس كما يزعمون، بل أكثرهم لا علم له بما يستحقه ربه من تعظيم، وما يستحقه رسوله من تكريم، فهم جاهلون بالمرسل والرسالة.

﴿١٠٢﴾ ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾

قل لهم - أيها الرسول -: أنا لم أقل إن القرآن من عند نفسي، بل هو وحي من عند الله نزل به جبريل من رب العالمين بالصدق في الأخبار، والعدل في الأحكام تثبيتًا للمؤمنين، وهداية للضالين، وبشارةً طيبةً للمتقين، ورحمةً للأبرار المفلحين.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾

والله يعلم أن الكفار يقولون: ليس القرآن وحيًا وإنما يتعلمه الرسول ﷺ من إنسان مثله من الناس، وليس من الله، وقد كذبوا في ذلك، فالإنسان الذي نسبوا إليه تعليم الرسول ﷺ القرآن أعجمي ليس عربيًا فصيحًا، والقرآن غاية في الفصاحة والبيان، فكيف يقول مثله العجمي الألكن!!

﴿١٠٤﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

إن الكفار الذين يكذبون بآيات الواحد القهار لا يرشدهم الله إلى الهداية، ولهم في النار عذاب أليم موجع وبئس القرار.

﴿١٠٥﴾ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

إنما يختلق الباطل ويقول الزور من لا يؤمن بالله وآياته ولقائه، وهم الكاذبون فيما قالوا في حق الرسول ﷺ والقرآن، أما الرسول ﷺ فهو الصادق المصدوق، بلَّغ الرسالة بأمانة وما كتم وما كذب.

﴿١٠٦﴾ ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

الذي يفتري الكذب ومن قال كلمة الكفر فكفر بعد الإسلام فعليه غضب الله وسخطه ولعنته، وله في الآخرة عذاب أليم في نار جهنم، لكن يُعذر من أُرغِم على النطق بالكفر، فنطق ليدفع الهلاك عن نفسه وقلبه ثابت على الإيمان فلا لوم عليه ولا إثم.

﴿١٠٧﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

لأن من آثر الكفر على الإيمان إنما فعل ذلك؛ لحبه للدنيا وزينتها وتفضيله إياها على الآخرة وثوابها، والله لا يوفق من كفر ولا يهدي من أعرض وفجر.

﴿١٠٨﴾ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

هؤلاء الكفار قد أغلق الله منافذ الهداية إلى قلوبهم؛ لإيثارهم الدنيا على الآخرة، فلا يصل إليها نور الإيمان، وأغلق أسماعهم فلا تسمع آيات القرآن سماع استجابة وإذعان، وأعمى أبصارهم فلا تشاهد البراهين الدالة على وحدانية الله، فهم غافلون عن الحجج الواضحة، وغافلون عن وعد الله ووعيده.

﴿١٠٩﴾ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

حقًا إن الكفار لفي خسار؛ لأنهم خالدون في النار؛ لأنهم تركوا طريق الهدى وسلكوا سبيل الردى.

﴿١١٠﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ثم إن ربك للمستضعفين من المؤمنين في مكة الذين عذبهم الكفار حتى نطقوا بكلمة الكفر في الظاهر وقلوبهم ثابتة على الإيمان، ولما استطاعوا الفرار بدينهم إلى المدينة، فعلوا ثم جاهدوا مع الرسول ﷺ لإعلاء كلمة الله وصبروا على أداء الطاعات واجتناب المنهيات، إن الله كثير الغفران لهم على ما أسلفوا من الذنوب، رحيم بهم حيث وفقهم للتوبة ولم يعجل لهم العقوبة.

﴿١١١﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

وتذكروا يوم العرض الأكبر يوم تقوم كل نفس تخاصم عن ذاتها وتعتذر عما فعلت وتنكر ما عملت، حينها تجازى كل نفسٍ بما قدمت من خير وشر؛ فللمحسن الثواب، وللمسيء العقاب بلا ظلم ولا هضم.

﴿١١٢﴾ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

وضرب الله مثلاً قرية مكة كانت في أمان من الأعداء حيث حماها الله - عز وجل - مطمئنة في عيش رغيد يأتي رزق أهلها هنيئًا يسيرًا من كل جهة، فلما جحدوا نعمة الله وأشركوا به وكذبوا رسوله ابتلاهم بالجوع والفقر والخوف والفتن والمحن بسبب أفعالهم القبيحة وأعمالهم الشنيعة.

﴿١١٣﴾ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

ولقد أرسل الله إلى كفار مكة محمدًا ﷺ يعرفون صدقه وأمانته، ونسبه، فردوا ما جاء به ولم يتبعوه، فابتلاهم الله بالشدائد والنكبات من جوع وخوف وقتل وأسرٍ وذلٍ وهوان، وقُتل أشرافهم في بدر وهم ظالمون لأنفسهم بالشرك.

﴿١١٤﴾ ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

فكلوا - أيها المسلمون - مما أباحه الله من الرزق الحلال الطيب واجتنبوا الحرام والخبيث، واشكروا نعمة الله بطاعته واتباع رسوله إن كنتم صادقين في إيمانكم مخلصين في عبادتكم.

﴿١١٥﴾ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

إنما حرم الله عليكم أكل من مات من الحيوان بلا تذكية، وحرم الدم المسفوح من الذبيحة عند ذبحها، وحرم لحم الخنزير وما ذُبح لغير الله، كالذبح للأصنام والأوثان والعرافين والكهنة، لكن من وصل إلى حالةٍ خاف على نفسه فيها الموت من الجوع، غير ظالم في الأكل بلا ضرورة، وغير متجاوز حد الضرورة، فإن الله غفور له رحيم به، لا يعاقبه على ما فعل، فالضرورات تبيح المحظورات.

﴿١١٦﴾ ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

ولا تقولوا - أيها الكفار - لما تفترونه من أباطيل: هذا حلال والله قد حرمه، وهذا حرام والله قد أباحه؛ لتنسبوا إلى الله ما لم يشرعه من تحليل الحرام وتحريم الحلال، إن الذين ينسبون إلى الله ما لم يقله لا ينالون خير الدنيا ولا خير الآخرة، ولا ينجون من عذاب الله.

﴿١١٧﴾ ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

بقاؤهم في الدنيا يتمتعون بمتاعها الحقير الزهيد قليل، ولهم في الآخرة عذاب أليم في نار الجحيم.

﴿١١٨﴾ ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

وقد حرم الله على اليهود ما أخبر به رسوله ﷺ من قبل، وهو كل ذي ظفرٍ كبعض الطيور، وحرم عليهم الشحوم إلا ما حملته ظهور البهائم أو وُجد في أمعائها أو كان مختلطًا بالعظم، وما ظلمهم الله بتحريم ذلك عليهم لكنهم بغوا واعتدوا فاستحقوا عقوبة الحرمان، فما وقعت عقوبة إلا بذنب.

﴿١١٩﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم إن الله - سبحانه - يغفر للذين فعلوا المعاصي وهم جاهلون بعاقبتها وإيجابها لغضب الله (فكل عاصٍ أخطأ أو تعمّد فهو جاهل بهذا المفهوم وإن كان يعلم التحريم)، ثم عادوا إلى ربهم نادمين، وتابوا إليه مما فعلوا، وأصلحوا أنفسهم بأنواع البر والطاعات، فالله يتجاوز عنهم بعد التوبة والإصلاح، ويرحمهم بتكفير السيئات وقبول الطاعات ومضاعفة الحسنات.

﴿١٢٠﴾ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

إن إبراهيم الخليل ﷺ كان إمامًا في الخير وقدوة في الصلاح، وكان مطيعًا لربه كثير الخشوع والخضوع، مستقيمًا على دين التوحيد لا يميل عنه إلى غيره، لم يشرك بالله أبدًا، ولم يتخذ من دون الله إلهًا آخر، فهو إمام الموحدين وأسوة العابدين.

﴿١٢١﴾ ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وكان إبراهيم كثير الشكر لربه على نعمه الجزيلة بالقلب واللسان والجوارح، اصطفاه الله للرسالة ووفقه لسلوك الطريق المستقيم، وهو التوحيد مع عمل الصالحات واجتناب المنكرات.

﴿١٢٢﴾ ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وأعطى الله إبراهيم في الدنيا الإمامة والذكر الحسن والعلم والنبوة والحكمة، وهو عند الله يوم القيامة في منزلة رفيعة وفي مرتبة عالية مع عبادة الأبرار وأوليائه الأخيار.

﴿١٢٣﴾ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

ثم أوحى الله إلى محمد ﷺ وأمره أن يتبع دين الإسلام كما كان عليه إبراهيم، وأن يلزمه ويستقيم عليه ولا يميل عنه، فإن إبراهيم كان موحدًا ولم يشرك بالله غيره.

﴿١٢٤﴾ ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

إنما فرض الله تعظيم يوم السبت ببعض العبادات على اليهود الذين اختلفوا فيه على رسولهم، واختاره بدل يوم الجمعة الذي هدى الله فيه محمدًا ﷺ، وإن الله سوف يحكم بين المختلفين يوم القيامة، فيثيب الطائعين ويعاقب العاصين، فهو الحكم العدل سبحانه.

﴿١٢٥﴾ ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

ادع - أيها النبي - أنت وأتباعك إلى دين الإسلام وأحكامه وأخلاقه بأحسن الطرائق وألطف الوسائل، وأجمل الأساليب من لين في الخطاب، ورفق في الكلام على منهج الكتاب والسنة، بلا غلظة ولا فظاظة ولا شره، بل بالتيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، ورغِّبهم في الخير وحذِّرهم من الشر، وانصح لهم بإشفاق، وجادلهم بأحسن أساليب المجادلة من حيث الرفق واللين والتجرد في الحوار، والبعد عن السب والإيذاء والاستعلاء والكبر، فليس عليك إلا البيان التام والنصح الصادق، فأنت مبلغ والله هو الهادي، يعلم من حاد عن الاستقامة، ويعلم من سلك الطريق المستقيم، وسوف يجازي كلاً بما فعل.

﴿١٢٦﴾ ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾

وإذا أحببتم القصاص من المعتدين فاقتصوا كفافًا مثلما اعتدي عليكم بلا زيادة، وإن صبرتم وعفوتم فهو أفضل لكم بالنصر في الدنيا والأجر في الآخرة، فمع العفو العز، ومع الصبر النصر.

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

واصبر - أيها النبي - على أذى الكفار ومشقة الدعوة والنوائب، ولن تستطيع الصبر إلا بعون من الله، فهو الذي يلهمك الصبر، ويعينك ويؤيدك ويسهل عليك كل صعب، ولا تحزن على من عصاك وأبى الاستجابة لك، ولا تغتم وتهتم من كيد الكائد ومكر الماكر، فإن العاقبة لك والدائرة على أعدائك، والله وليك وناصرك، ولن تغلب أو تُهزم، والله معك، وهذا للنبي ﷺ وكل من اتبعه واهتدى بهداه.

﴿١٢٨﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾

إن الله - سبحانه - يؤيد من اتقاه بفعل ما أمر، وترك ما نهى عنه من ذنوب وآثام ومنكرات ويحفظه ويتولاه، وهو مع من أحسن في أداء الطاعات وسارع في الخيرات وتقرب إلى ربه بأنواع العبادة المشروعة مع إحسان أدائها بالإخلاص والمتابعة.

مكية

ترتيبها ١٧

## سورة الإســراء

آياتها ١١١

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾

ينـزّه الله نفسه ويعظم شأنه ويقدس ذاته بأنه - سبحانه - ذو الأسماء الحسنى والصفات العلى، له الكمال المطلق - جل في علاه - لا إله غيره ولا رب سواه، وهو - سبحانه - الذي أسرى بنبيه وعبده محمد ﷺ وقتًا من الليل بجسمه وروحه يقظةً لا منامًا من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس الذي جعل الله حوله من بركات الأرض من ثمار وحبوب وفواكه وغير ذلك، وفيه منازل كثير من الأنبياء، أسرى به ليرى عجائب قدرة الله وبراهين عظمته وأدلة وحدانيته، إنه - سبحانه - سميع للأقوال ولكل مسموع، بصير بالأعمال والأحوال، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عن علمه غائبة.

﴿٢﴾ ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ﴾

وكما فضل الله نبيه بالإسراء تفضل على موسى بإنزال التوراة عليه، وجعل فيها البيان الكافي والإرشاد التام لبني إسرائيل، تنهاهم عن الشرك، وتدعوهم إلى توحيد الله بالعبادة والتوكل عليه وحده لا على سواه من الأنداد والأضداد.

﴿٣﴾ ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾

يا سلالة من أنجاهم الله من الطوفان وحملهم في السفينة مع نوح أخلصوا لربكم العبادة ولا تشركوا به شيئًا، واشكروه على نعمه كشكر نوح لربه، فإن نوحًا كان كثير العبادة لله، دائم الشكر له بالقلب واللسان والجوارح، والشكر من أعلى منازل العبودية.

﴿٤﴾ ﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴾

وأخبر الله اليهود في التوراة التي أنزلت على نبيهم موسى أنه مكتوب عليهم أنهم سوف يفسدون في بيت المقدس مرتين من قتل للأنبياء وسفك للدماء، وجور واعتداء.

﴿٥﴾ ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾

فإذا حصل من اليهود الإفساد الأول سلّط الله عليهم جيشًا ذا بطش شديد، وعدة وعديد يهزمونهم ويأسرونهم ويقتلونهم ويطردونهم، فيطوف هذا الجيش في مواطن اليهود يبيدهم ويجتاحهم، وهذا وعد أكيد لابد أن يحصل بسبب عصيان اليهود.

٦ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

ثم يعيد الله الكرة لليهود بالنصر والغلبة على العدو، ويكثّر أموالهم وأبناءهم، ويزيد قوتهم، ويبارك في عددهم بسبب إحسانهم وتوبتهم وعودتهم إلى ربهم.

٧ ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

إن أحسنتم - يا بني إسرائيل - مع ربكم بطاعته، ومع الخلق بحسن التعامل، واتقيتم الله في أقوالكم وأعمالكم فأجر ذلك عائدٌ إليكم، وإحسانه راجع إليكم، فالله غني عنكم وعن أعمالكم، وإن أسأتم بالمعاصي والذنوب فالعقاب عليكم، والنكال نازل بكم، فإذا أفسدتم -أيها اليهود - مرة ثانية سلَّط الله عليكم عدوًا كثيرًا عدده، قويًا بأسه، فيقتلكم ويذلكم ويخزيكم ويقهركم فتبقون في هوان وعار ومسكنة وهزيمة، وسوف يفتح أعداؤكم بيت المقدس فيهدمونه كما هدموه في المرة الأولى، ويدمر كل بناء تدميرًا كاملاً فتصبح أرضكم بهذا العدو لكم خرابًا.

٨ ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾

عسى ربكم - يا بني إسرائيل - أن يرحمكم إن رجعتم إليه وندمتم على ما فعلتم من الإفساد والظلم، وبدلتم السيء بالحسن، وإن عدتم إلى المعاصي وظلم الناس والإفساد في الأرض عاد الله إلى عقابكم وإذلالكم، أما في الآخرة فقد جعل الله النار سجنًا للكفار لا يخرجون منه أبدًا، وفي الآية تحذير للناس من الذنوب، وبيان لعواقبها في الدنيا والآخرة من الذل والهوان والعذاب في النيران.

٩ ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

إن هذا القرآن المنزل على رسول الله ﷺ الذي أنزله الله - تعالى - فيه السعادة والفلاح والفوز والنجاة لمن آمن به واهتدى بهداه، فهو يرشد أهل الإيمان إلى كل خير وصلاح وينهى عن كل قبيح ومنكر، وهو بشرى لمن آمن وعمل صالحًا؛ لأن الله قد أعد له ثوابًا عظيمًا في جنات النعيم، فالقرآن يرشد إلى أقوم السبل في العقائد والعبادات والأخلاق والسلوك مما يناسب الفطرة القويمة والعقول السليمة، فلا تجد خيرًا إلا وقد سبق القرآن إلى الدعوة إليه، ولا شرًا إلا وقد حذَّر القرآن منه.

١٠ ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

والذين يكذبون بيوم القيامة والبعث بعد الموت، أعدَّ الله لهم في نار جهنم عذابًا موجعًا أليمًا جزاءَ تكذيبهم.

١١ ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾

والإنسان في بعض الأوقات من غضبه وعجلته يدعو على نفسه أو ولده أو ماله بالشر مثلما يدعو بالخير، ولكن الله رحيم لا يستعجل بالإجابة للإنسان حينما يدعو بالشر، وإنما يستجيب للعبد إذا دعا بالخير لطفًا منه ورحمةً، والإنسان من طبيعته العجلة وعدم تقدير العواقب وقلة الصبر أمام الشهوة والغضب.

١٢ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾

والله جعل الليل والنهار برهانين واضحين على وحدانيته وقدرته - جل في علاه - فمحا القمر الذي هو علامة الليل، وجعل الشمس مضيئةً ساطعةً وهي علامة النهار؛ ليرى الإنسان في النهار طرق الكسب والمعاش والذهاب والإياب والتصرف في مصالحه، ويعود في الليل إلى منامه ليستريح وتنقطع أشغاله وأعماله، وليستدل العباد من تعاقب الليل والنهار على عدد السنين وحساب الأشهر والأيام، والله قد بين كل شيء ووضحه توضيحًا كافيًا شافيًا.

﴿١٣﴾ ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾

والله يُلزم كل عبد بعمله من خير أو شر فلا يجازيه على عمل غيره ولا يجازي غيره بعمله، ويريه الله يوم الحساب كتاب الأعمال من الحسنات والسيئات معروضًا أمام بصره ليقرأه بنفسه.

﴿١٤﴾ ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

ويُقال للعبد: طالع كتاب الحسنات والسيئات التي عملتها في الدنيا؛ فيقرأ ولو كان أميًا، وكفى بنفسه مطلعةً على أعماله، محصيةً لحسناته وسيئاته، وليعلم أن الله عدل لا يظلم أحدًا.

﴿١٥﴾ ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

من لزم الصراط المستقيم واتبع الحق فأجر ذلك له وحده، ومن ضل عن الهداية واتبع الغواية فإثم ذلك عليه وحده، ولا تتحمل نفس مسيئة ذنوب نفس أخرى مسيئة، فلن يُعذب أحد بذنب أحد ما لم يكن سببًا في إضلاله، والله لا يعاقب إنسانًا إلا إذا وضَّح له الحجة وبيَّن له المحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿١٦﴾ ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾

وإذا أراد الله أن يهلك مدينة بذنوبهم أمر أغنياءهم ورؤساءهم بالطاعة، فإذا عصوه اقتدى بهم الناس في ذلك العصيان، فحل عقاب الله بالجميع، فاستأصل أهل المدينة جميعًا وأهلكهم هلاكًا تامًا.

﴿١٧﴾ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

والله قد أفنى بالعذاب أممًا سابقة متقدمة كانت كافرة مكذبة من بعد نوح، وكفى بالله عالمًا بأفعال العباد من خير وشر، فيجازي كلاً بما فعل بلا ظلم ولا هضم.

﴿١٨﴾ ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾

من أراد من الناس بعمله الدنيا الفانية الزائلة ومتاعها وزخرفها ولا يعمل للآخرة أعطاه الله من الدنيا ما أراد على ما قدر له وقضى؛ لهوان الدنيا على الله، ثم يكون مرده يوم الحساب إلى النار يدخلها ملومًا على ذنوبه مطرودًا من رحمة ربه؛ لأنه عصى الأمر وقدم الفانية على الباقية، وما أعد العدة للقاء الله.

﴿١٩﴾ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾

ومن أراد من الناس بعمله الصالح ما عند الله في دار البقاء وعمل للآخرة بطاعة الله على نور من الكتاب والسنة يرجو ثواب الله، قَبِلَ الله عمله وأثابه على فعله وأكرم نزله في جنات النعيم.

﴿٢٠﴾ ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

كل طائفة ممن يعمل للدنيا الزائلة والآخرة الباقية يمنحه الله من رزقه، فيرزق عباده الصالحين رزقًا حلالاً طيبًا يعينهم على الطاعة، ويعطي الفجار الأشرار من متاع الدنيا ما يقتاتون به ويتمتعون مثلما يعطي البهائم، فإن عطاء الله من الدنيا لأحد ليس دليلاً على صلاحه ولا فساده، فهو يعطي المؤمن والكافر ولا يمنع عطاءه عن أحد.

﴿٢١﴾ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

تدبر كيف يفضل الله بعض العباد على بعض في عطاء الدنيا، فيغني بعض الناس ويفقر بعضهم، والتفضيل في الآخرة أعظم وأكبر، فالمؤمنون أجل ثوابًا وأحسن مآلاً وأكرم نزلاً من غيرهم، ثم هم يتفاضلون فيما بينهم في الثواب.

﴿٢٢﴾ ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾

لا تجعل - أيها الإنسان - شريكًا مع الرحمن، من الأصنام والأوثان، فتعود بالخزي والندامة والذم والخذلان.

﴿٢٣﴾ ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾

وأوجب الله على العبد أن يوحِّده بالعبودية ويفرده بالألوهية ولا يشرك به شيئًا، وأن يحسن إلى والديه كل الإحسان، وبخاصة عند الشيخوخة، فلا يملُّ من برِّهما ولا يستثقل الإحسان إليهما، وألا يسمعا منه إلا كل جميل حتى لا يجوز له التأفف منهما الذي هو أقل مراتب القول السيء، ولا يجوز أن يلقاهما بأي فعل أو قول قبيح، بل بالإكرام والاحترام والحفاوة واللطف واللين والرحمة.

﴿٢٤﴾ ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

وكن - أيها الإنسان - لأبيك وأمك طائعًا ذليلاً متواضعًا ترحم ضعفهما، وتدخل المسرة عليهما، واسأل الله دائمًا لهما الرحمة الواسعة في حالة الحياة والموت؛ جزاء على ما قدما لك وتعبا من أجلك وسهرا على راحتك.

﴿٢٥﴾ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴾

الله وحده أعلم بما في الضمائر والسرائر، وهو مطلع على الخوافي، يعلم النيات وما تضمره من إرادات، إن كان قصدكم - أيها العباد - مرضاة الله وما يقربكم منه وأخلصتم له العمل فإنه يغفر ذنوب من رجا عفوه وطلب ما عنده وأراد وجهه، فالله يعفو لمن علم منه الإنابة والمحبة له ولرسوله ولكتابه، ويتجاوز عمّا يحصل منه من آثام لا يسلم منها البشر.

﴿٢٦﴾ ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾

وأدِ حقوق القرابة إليهم من الصلة والبر والإكرام والإحسان والصبر على الأذى، وأعط المسكين ما يحتاج إليه مما أعطاك الله، وأكرِم من انقطع به سفره عن أهله وماله، وأخلص لوجه الله في إنفاق مالك ولا تضيعه في غير حقوقه أو تسرف في العطاء، بل الزم الوسط والعدل في الإنفاق وغيره.

﴿٢٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾

إن الذين يسرفون في إنفاق أموالهم في الذنوب وفي الزيادة عن الحق وتجاوز العدل يشابهون الشيطان في العصيان والاعتداء والطغيان، ومن طبيعة الشيطان أنه يكفر نعمة الرحمن وينسى الإحسان.

﴿٢٨﴾ ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾

وإن أعرضت عمن سألك العطاء ولم تعطه شيئًا لعدم وجوده لديك وأنت تنتظر الرزق من الله، فقل للسائل قولاً طيبًا سهلاً لطيفًا، كالدعاء له بقضاء حاجته وتسهيل أمره، وعده فيما يُستقبل أن الله إذا سهَّل رزقًا فليستبشر بخير.

﴿٢٩﴾ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾

ولا تقبض يدك عن العطاء وتبخل بمالك ولا تسرف في الإنفاق والبذل، فإنك بالبخل يلومك الناس وبالإسراف تتحسر على ذهاب المال.

﴿٣٠﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

إن الله يوسع رزقه على بعض عباده، ويضيق الرزق على بعضهم؛ لعلمه وحكمته، فهو يصرِّف العباد كما يشاء لمصلحة يعلمها؛ لأنه مطلع على خفايا العباد لا تخفى عليه - سبحانه - خافية من أحوال عباده.

﴿٣١﴾ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾

وإذا تيقنتم أن الله وحده هو الرّزاق فلا تقتلوا أبناءكم خوفًا من الفقر، فليس رزقهم عليكم بل على الله وحده، فهو الذي يرزق الأبناء والآباء والأجداد والحفدة؛ لأن قتل الأبناء جرم كبير وإثم خطير، وفي تقديم رزق الأبناء على رزق الآباء تأكيدٌ على عدم قتلهم؛ لأن الله يتولى شؤونهم.

(٣٢) ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾
ولا تقربوا الزنا ودواعيه فتقعوا فيه، واجتنبوا أسبابه، مثل: النظرة والخلوة والخضوع بالقول، فالزنا شديد القبح، عظيم الشناعة وبئست هذه الفاحشة طريقا فإنها تجلب من شؤم المعصية ما يلوث المجتمع والضمير، وفي الآية قال: ﴿وَلا تَقْرَبُوا﴾ بدلاً من «لا تفعلوا» لحث الإنسان على البعد عن كل سبب يؤدي إلى الزنا.
(٣٣) ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾
ولا تقتلوا النفس المعصومة التي حرم الله قتلها إلا بحكم الشرع، كالقصاص وقتل الثيب الزاني، والمرتد، ومن قتل بغير حق شرعي فقد جعل الله لولي أمر المقتول من الورثة أو الحاكم حقًا في المطالبة بدم المقتول قصاصًا أو دية، وليس له أن يتجاوز الحد في القصاص، فإن الله مع ولي المقتول بالتأييد على القاتل؛ لأنه مظلوم بقتل وليه حتى يتمكن من أخذ حقه قصاصًا أو دية أو عفوًا.
(٣٤) ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾
ولا يجوز لكم التصرف في مال اليتيم إلا بأحسن المنافع وأصلحها لما له، من تثمير ماله وتنميته لا بإتلافه والمخاطرة به حتى يبلغ اليتيم سن الرشد، حينها يسلم له المال، وعليكم بالوفاء بكل عهد التزمتموه، فإن الله سوف يسأل العبد عند كل عهد، فإن وفَّى به أثابه وإن غدر وخان عذَّبه.
(٣٥) ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾
وأتموا الكيل ولا تبخسوه إذا اكتال أحد منكم، وزنوا بميزان العدل إذا وزنتم للناس، إن في إتمام الكيل والوزن خيرًا في الدنيا من البركة والنماء، وحسن عاقبة في الآخرة من الأجر والمثوبة.
(٣٦) ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾
ولا تتبع ما لا تعلم وتتيقن منه، بل كن متثبتًا في أمورك، فلا تذهب وراء الظنون والشائعات؛ لأن الإنسان محاسب عند الله على سمعه وبصره وفؤاده، فإن جعلها في الخير أثابه الله، وإن سَخَّرها في الشر عاقبه.
(٣٧) ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾
ولا تمش - أيها الإنسان - مشية الكبر والخيلاء، فإنك مخلوق ضعيف لا تستطيع خرق الأرض بمشيك عليها، ولن تستطيع أن تكون كالجبال من طولها، فأنت بالنسبة إليها قصير ضئيل.
(٣٨) ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾
كل ما ذُكر في الآيات السابقة من أوامر ونواه يكره الله سيئها ولا يرضاه لعباده؛ ولذلك حرَّمه.
(٣٩) ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾
ذلك الذي بَيَّنَهُ الله لك - أيها النبي - وأنزله عليك من الأحكام النافعة والأخلاق الفاضلة والآداب الحسنة والنهي عن كل قبيح، هي مما يزكي الإنسان ويهذبه، ولا تتخذ مع الله إلهًا غيره وتشرك معه سواه، فتُرمى في نار جهنم. تلومك نفسك و يلومك الناس، مطرودًا من رحمة الله، محرومًا من كل خير، يذمّك الخلق ويعذبك الخالق.
(٤٠) ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾
أفخصَّكم الواحد القهار - أيها الكفار - بإعطائكم الذكور من الأبناء واتخذ - سبحانه - لنفسه بنات من الملائكة؟ إن قولكم هذا غاية في القبح والبشاعة والشناعة، حيث نسبتم إلى الله ما لا يليق به عز وجل.
(٤١) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾
ولقد بيّن الله في القرآن ووضح الأحكام والقصص والأمثال؛ لينتفع الناس بها؛ وليستفيدوا من عظاتها وعبرها، وما يزيد هذا البيان في القرآن أهل الظلم والطغيان إلا بعدًا عن طاعة الرحمن، وإمعانًا في اتباع الشيطان.

﴿٤٢﴾ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: لو كان مع الله آلهةٌ أخرى غيره لطلبت تلك الآلهة طريقًا إلى مغالبة الله ذي العرش العظيم، ولحاولت محاربته والاستيلاء على بعض ملكه، ولكنه واحد أحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته.

﴿٤٣﴾ ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

تنـزَّه الله عن أقوال الكفار وما ينسبونه إليه، فهو الواحد القهار، وعلا على خلقه علو ذات وقدر وقهر، علوًا عظيمًا يليق بجلاله.

﴿٤٤﴾ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

تسبح لله السموات السبع والأراضين وما فيهن من مخلوقات، وكل موجود يقدس ربه وينـزهه ويثني عليه ويحمده ويمجده بما هو أهله، فله الحمد كله، والملك جميعه، والثناء أوله وآخره، لكنكم - أيها الناس - لا تفهمون تسبيح المخلوقات، فكلٌّ يسبح بلغته وطريقته، والله حليم لا يعاجل بالعقوبة من عصاه بل يمهله، كثير المغفرة لمن عاد وأناب واستغفر وتاب.

﴿٤٥﴾ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

وإذا قرأت - أيها النبي - القرآن فسمعه الكفار، جعل الله بينك وبينهم حجابًا ساترًا يحجب عقولهم عن الفهم لكفرهم بالآخرة؛ عقابًا من الله لهم، فهم يسمعون الصوت ولا يدركون المعنى، فبحسب ذنب العبد يحرم الفقه في الدين.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾

وجعل الله على قلوب الكفار أغطية لئلا يفهموا معاني القرآن، وجعل في آذانهم صممًا عن سماعه، وإذا ذكرت الله - أيها الرسول - في القرآن بأسمائه وصفاته داعيًا إلى عبادته وحده ناهيًا عن الإشراك به، عادوا على أعقابهم منكرين لقولك كارهين لما جئت به، عنادًا واستكبارًا لئلا ينقادوا للحق.

﴿٤٧﴾ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾

الله يعلم بالذي يستمعه الكفار، فهم يستمعون إليك - أيها النبي - ومقاصدهم سيئة، فليس سماعهم لقبول الحق والانتفاع به، والله يعلم تناجيهم فيما بينهم حين يقول بعضهم لبعض: إن هذا الرجل الذي تتبعونه أصابه سحر أذهب عقله كذبًا منهم وزورًا.

﴿٤٨﴾ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

تأمل متعجبًا من كذبهم في قولهم: محمد ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون فأخطؤوا وكذبوا وانحرفوا عن الصواب، ولم يوفقوا للحق.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

وقال الكفار وهم ينكرون البعث والنشور: كيف نحيا حياةً جديدة ونُبعث بعد الموت وقد صرنا عظامًا بالية وتفتّتت أجسامنا؟! فلا أمل في إعادتنا أحياء.

﴿٥٠﴾ ﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾

قل لهم - أيها الرسول على وجه التحدي والتعجيز -: إن استطعتم فكونوا حجارة أو حديدًا في الصلابة والشدة وصعوبة الاستحالة، فإن الله سوف يعيدكم كما بدأكم، ويحييكم بعد الموت مثلما خلقكم من العدم؛ وهذا سهل يسير عليه سبحانه.

﴿٥١﴾ ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾

أو إذا استطعتم فتحولوا إلى خلق عظيم أشد من خلقكم هذا، مستبعد في عقولكم، فإن الله لابد أن يبعثكم كما أماتكم، ويحييكم كما خلقكم، وإذا غلبتهم بالحجة على أن الله قادر على إعادتهم بعد الموت، فسوف يردّون عليك

منكرين ويقولون: من الذي يعيدنا إلى الحياة بعد أن متنا؟! فأجبهم بقولك: يعيدكم إلى الحياة بعد الموت الذي أوجدكم من العدم أول مرة، حينها سوف يسخرون ويهزون رؤوسهم من الإنكار والتعجب، ويقولون: متى هذا البعث؟! فقل لهم: هو واقع لا محالة، قريب لا شك في مجيئه وكل آتٍ قريب.

﴿٥٢﴾ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ويوم يناديكم الله وأنتم أموات في قبوركم، فتجيبون النداء وتذعنون وتطيعون لأمر الله، وله الحمد وحده على كل حال، وتحسبون من كثرة أهوال يوم القيامة أنكم ما عشتم في الدنيا إلا عمرًا قصيرًا لطول الآخرة.

﴿٥٣﴾ ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

وقل - أيها الرسول لعباد الله المتقين -: إذا خاطبوا غيرهم أو تحاوروا فيما بينهم فليختاروا الكلام الطيب والكلام الحسن اللين، وليبتعدوا عن الإساءة في القول وما يجلب الغضب ويثير النفس؛ لأن الشيطان حريص على إلقاء العداوة والبغضاء والشحناء بين المؤمنين، والأقوال السيئة تهيج هذه العداوة، ويتبعها سوء الظن والقطيعة والانتقام؛ والشيطان عدو للإنسان لا يريد صلاحه واستقامته، ولا يريد إخاءه لإخوانه المؤمنين.

﴿٥٤﴾ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

ربكم أعلم بما في نفوسكم وأحوالكم إن يشأ الله يرحمكم بأن يهديكم للإيمان وإن يشأ يضللكم فيعذبكم، وما أرسلناك يا محمدُ موكلا عليهم فما عليك إلا البلاغ.

﴿٥٥﴾ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾

وربك - أيها النبي - يعلم بكل ما في السموات والأرض، لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه غائبة، وقد فضَّل الله - سبحانه - بعض أنبيائه على بعض في المنزلة من حيث اختصاص بعضهم بنزول كتابٍ عليه أو كثرة علمه وفقهه وحكمته، أو كثرة أتباعه ومعجزاته، وتفضّل الله على داود بكتاب الزبور يتلوه في كل حال.

﴿٥٦﴾ ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: إن هذه الأصنام والأوثان التي تدعونها وقت ضركم وحاجتكم لا تكشف ضرًا ولا تحوله عنكم إلى سواكم، ولا تحول البلاء من حال إلى حال، فالذي يكشف الضراء ويزيل البلاء ويجلب النعماء ويأتي بالسراء هو رب الأرض والسماء، وهذه الآية تعم كل ما يُعبد من دون الله من حي وميت، وغائب وحاضر، وصالح وفاسد، وصنم ووثن، ونجم وكوكب، وساحر وكاهن وغير ذلك، فلا ينفع ولا يضر إلا الله وحده.

﴿٥٧﴾ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

أولئك المدعوّون لكشف الضر من الأنبياء والملائكة والصالحين هم أنفسهم يتسابقون في طاعة ربهم ويتنافسون في عبادته والقرب منه، وينتظرون عفوه ورضوانه ويخافون عقابه وانتقامه، وإن عذاب الله يجب أن يُخاف منه، وأن يُحذر من وقوعه، وأن لا يأمن العبد نزوله، فعليه أن يفرَّ من غضب الله إلى رضوان الله بطاعة الله.

﴿٥٨﴾ ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾

ولا توجد قرية كَفَرَ أهلها بالله وكَذَّبوا رسله إلا سيعذبهم الله بالهلاك والدمار قبل يوم القيامة، أو يعذب أهلها بالبلاء والضراء والبأساء وأنواع النقم، وهذا قضاء قضاه الله وأبرمه وفرغ منه، وحتَّم وقوعه، وهو مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿٥٩﴾ ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾

وما منع الله من إنزال المعجزات التي طلبها الكفار من الرسل إلا لأن الذين تقدموهم من الأمم قد كذبوا بتلك المعجزات فأهلكهم الله، وأعطى الله ثمود قوم صالح الناقة، وهي معجزة بينة ظاهرة، فكذبوا بها فدمَّرهم الله، وما

أرسل الله الأنبياء بالمعجزات والآيات البينات التي وقعت على أيديهم إلا ليخوِّف العباد لعلَّهم يعودون إلى طريق الرشاد ويجتنبون الكفر والفساد.

﴿٦٠﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم أوحى الله إليك بأن الله أحاط بالناس علمًا وقدرةً، وما جعل الله الرؤيا التي أراك إياها عيانًا لا منامًا ليلة الإسراء والمعراج من عجائب الخلق إلا امتحانًا للعباد؛ ليظهر المصدق من المكذب، وما جعل الله شجرة الزقوم الملعونة المذكورة في كتاب الله إلا امتحانًا للعباد أيضًا، والواحد القهار يخوف الكفار بأصناف العذاب وأنواع المعجزات، ومع ذلك لا يزيدهم هذا التخويف إلا إمعانًا في الكفر والعصيان.

﴿٦١﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

واذكر يوم أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم احترامًا وتقديرًا فامتثلوا الأمر وسجدوا إلا إبليس، فإنه عصى وتمرَّد وأبى أن يسجد، وقال مُستكبرًا: كيف أسجد لآدم وهو مخلوق ضعيف من طين؟

﴿٦٢﴾ ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وقال الشيطان متكبرًا على أمر الله وعاصيًا له لما أمره بالسجود لآدم: أرأيت هذا المخلوق من طين الذي فضلته علي؛ لئن أطلت في عمري إلى يوم القيامة لأستولين على ذريته بالإفساد والإغواء حتى أصدَّهم عن سبيل الله، إلا من أخلص في إيمانه وعمله وهم قليل فلا سبيل لي عليهم.

﴿٦٣﴾ ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾

فقال الله يتوعَّد إبليس اللعين وأتباعه إلى يوم الدين: اذهب فافعل ما بدا لك، فمن أطاعك من ذرية آدم فعذابك وعذابهم كبير مدخر في نار جهنم ينتظركم.

﴿٦٤﴾ ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

واستخف - أيها الشيطان - بالعصيان كل من استطعت من الإنس والجان، واجمع كل ما تستطيع أن تجمعه من أتباعك من راكب وراجل، واجعل لنفسك نصيبًا في أموالهم لكسب الحرام، وفي أولادهم بالزنا والمعاصي والفجور والفساد، وعد من اتبعك وأطاعك الوعود الكاذبة والأماني الباطلة من الزور والشرور والمكر والغرور.

﴿٦٥﴾ ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

إن عباد الله المؤمنين الصادقين المخلصين الذين أطاعوه واتبعوا رسوله ﷺ لا يستطيع الشيطان إضلالهم، فهم في حفظ الله ورعايته وتسديده وتأييده، فمولاهم الله يحفظهم من الشيطان ومكره وكيده.

﴿٦٦﴾ ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

ربكم - أيها العباد - هو الذي تفضل عليكم فسيَّر لكم السفن في البحار؛ لتتاجروا وتسافروا على متنها وتطلبوا الرزق بها، وهذا من رحمة الله بكم، فهو رحيم بعباده يجلب لهم ما ينفعهم ويصرف عنهم ما يضرهم.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾

وإذا نزلت بكم - أيها الناس - شدة في البحر وأشرفتم على الموت والغرق نسيتم من كنتم تشركون به من الآلهة، وتذكرتم الله وحده، فدعوتموه واستغثتموه ليغيثكم وينجيكم، فلما أخرجكم سالمين من البحر إلى البر أعرضتم عن الإيمان وتوحيد العبادة لله، وعدتم إلى الشرك والمعاصي، وهذا من جهل الإنسان وغفلته.

﴿٦٨﴾ ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾

هل عندكم أمن أن يزلزل الله الأرض من تحت أقدامكم فتنهار بكم؟ أم عندكم أمن أن يَصُب الله عليكم حجارة من السماء تمزِّقكم ثم لا تجدوا أحدًا يدفع عنكم العذاب ويرد عنكم العقاب.

﴿٦٩﴾ ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾

هل عندكم أمن - أيها العباد - أن يعيدكم الله مرةً ثانية إلى البحر فيرسل عليكم ريحًا شديدة تكسِّر مراكبكم وتغرق سفنكم؛ لأنكم كفرتم بالله، وبعد هلاككم لا تجدون على الله أيّ تبعة أو مطالبة؛ لأن الله عادل في عقوبتكم ولم يظلمكم شيئًا.

﴿٧٠﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

ولقد كرم الله ذرية آدم عن سائر المخلوقات بالعقل وإنزال الكتب وإرسال الرسل والمعرفة والعلم، وسخَّر لهم كل ما في الكون، وسخَّر لهم الدواب في البر والسفن في البحر لتنقلهم في أسفارهم ومعاشهم، ورَزَقَهم - سبحانه - من أنواع المأكولات وأصناف المشروبات وأشكال الملبوسات، وفضَّلهم على سائر المخلوقات، ورفعهم درجات على كل الكائنات، فالإنسان أشرف مخلوق حتى يكفر، فإذا كفر فهو في أسفل سافلين.

﴿٧١﴾ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

وتذكر يوم القيامة حين يجمع الله الأولين والآخرين، وينادي كل طائفة من الناس مع إمامهم الذي يقتدون به في الخير والشر، فالصالح يعطيه الله كتاب حسناته بيمينه فهو يقرؤه فرحًا مسرورًا، ولا ينقص من أجر عمله شيئًا، ولو كان مقدار الخيط الذي في شق النواة.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

ومن كان في الدنيا أعمى البصيرة عن براهين التوحيد وأدلة قدرة الله فكفر بما جاء به محمدﷺ فهو يوم القيامة أعمى عن طريق الجنة، وأكثر ضلالاً عن الهداية والرشد والفلاح.

﴿٧٣﴾ ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾

ولقد حاول الكفار أن يصرفوك - أيها الرسول - عن القرآن المنزل عليك لتختلق على الله غير ما أنزل، ولو فعلت ما طلبوا ولبيت ما سألوا لجعلوك صديقًا لهم وحبيبًا خالصًا؛ لموافقتك لما أرادوا.

﴿٧٤﴾ ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾

ولولا أن الله ثبتك - أيها الرسول - على الحق وعصمك من الباطل لأوشكت أن تميل إلى قولهم وتتنازل عن بعض الشيء؛ رغبةً منك في هدايتهم، وحرصًا منك على استجابتهم.

﴿٧٥﴾ ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

ولو وافقت الكفار - أيها الرسول - ولو موافقة قليلة فيما طلبوا، إذًا لأذاقك الله مثلي عذاب الحياة في الدنيا، ومثلي عذاب الممات في الآخرة؛ وذلك لأن الله رفع منزلتك بالنبوة وأعلى قدرك بتمام المعرفة وكمال العلم، فمن عصى المنعم ابتلي بالنقم بحسب ما كان عنده من النعم، وبعد ذلك لا تجد - أيها الرسول - أحدًا يمنعك من عذاب الله ويدفع عنك عقابه.

﴿٧٦﴾ ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ولقد حاول الكفار أن يخرجوك - أيها النبي - من مكة؛ لكثرة الإيذاء، ولو فعلوا ذلك لم يبقوا بعدك إلا مدة يسيرة، ثم ينزل الله بهم العقوبة والنكال أو الموت والارتحال.

﴿٧٧﴾ ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

تلك سنة الله - تعالى - في إهلاك الأمم التي تُخرج أنبياءها من بين أظهرها، وسنة الله لا تتغير ولا تتبدل، فهي ثابتة مطردة لا تختلف باختلاف الزمان أو المكان.

﴿٧٨﴾ ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾

أدِّ الصلاة تامة كاملة من وقت زوال الشمس في منتصف النهار إلى ظلمة الليل، ومنها صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأدِّ صلاة الفجر وأطل قراءة القرآن فيها، فإن الملائكة تحضر القراءة في صلاة الفجر ببركة القرآن وشرف الزمان.

﴿٧٩﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾

وقم بعد نومك فصلِّ بعض الوقت من الليل تاليًا لكتاب الله؛ لتكون زيادة لك في الحسنات، ورفع الدرجات، عسى أن يبعثك الله - أيها النبي - شافعًا للناس يوم القيامة؛ ليخفف الله عنهم بفصل القضاء وتقف موقفًا يثني عليك فيه الأولون والآخرون، وهو موقف الشفاعة الكبرى.

﴿٨٠﴾ ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾

وادع ربك فقل: يا ربي، أدخلني فيما هو صلاح وخير لي مدخل صدق، وهو مدخل الهداية والرشد والتوفيق، وأخرجني مما هو شرٌ لي من الأقوال والأعمال مخرج صدق، وهب لي من لدنك حجةً ثابتة تنصرني بها على جميع من خالفني، فإن الدليل الصحيح الثابت يعد من أعظم السلاح على الأعداء عند الجدال والاختلاف.

﴿٨١﴾ ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴾

وقل أيها النبي للكفار جاء الإسلام وذهبت عبادة الأصنام، وذهب باطلكم الزائف المفترى وانتصر عليه الحق؛ لأن الحق ثابت غالب منتصر.

﴿٨٢﴾ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴾

وينزل الرحمن الرحيم من آيات القرآن الكريم ما ينقي كل قلب سقيم من أمراض الشبهات كالكفر والنفاق والشك، وأمراض الشهوات وحب الزنا وأنواع الفواحش، وما ينقي الأجسام من الآلام برُقْيَتِها بهذا الكلام، وما يكون سببًا لنيل رحمة الله من الإيمان والحكمة والفقه في الدين، ولا يزيد هذا القرآن أهل الكفر عند سماع تلاوته إلا كفرًا وضلالاً؛ لكثرة تكذيبهم وجحودهم، فالقرآن يزيد المؤمنين إيمانًا والكافرين طغيانًا.

﴿٨٣﴾ ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴾

وإذا أنعم الله على من كذب بآياته وكفر بنعمه عصى أمره وارتكب معاصيه، وإذا أصابه بلاء من فقر أو مرض أيس من رحمة الله في الغنى والعافية، فهو لا يثق بفضل الله ولا يصدق وعده باليسر بعد العسر، والفرج بعد الشدة.

﴿٨٤﴾ ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾

قل - أيها الرسول - للناس: كل واحد منكم يعمل على ما يناسبه من الأحوال وما يقدر له من الأعمال، فالله يعلم عمل كل عامل، وسوف يجازيه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وفيه تهديد ووعيد للعصاة.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾

ويسألك الكفار - أيها النبي - عن حقيقة الروح تعجيزًا ومكابرة، فأجبهم بأن أسرار الروح وحقيقتها مما استأثر الله بعلمه لا يعلم ذلك إلا الله وحده، وما أُعطي الناس من العلم بالنسبة إلى علم الله تعالى إلا شيئًا قليلاً، وهذا القليل هم درجات فيه.

﴿٨٦﴾ ﴿ وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴾

ولو أراد الله أن يمحو القرآن من قلبك - أيها الرسول - لفعل ذلك، فهو قدير على كل شيء، ثم لا تجدُ من ينصرك فيمنعك من ذلك المحو والنسيان، أو يحفِّظُكَ القرآن بعدما نسيته.

﴿٨٧﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾

لكن الله رحمك - أيها النبي - فحفظ عليك كتابه في صدرك، إن فضله كان عليك عظيمًا، فقد اختارك للنبوة وأكرمك بالقرآن العظيم، وشرَّفك بالمقام المحمود، وأعطاك الحوض المورود وغير ذلك من المراتب العالية والمنازل الرفيعة.

﴿٨٨﴾ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

قل لو اجتمع جميع الإنس والجن وحاولوا معارضة القرآن والإتيان بمثله في البلاغة والفصاحة؛ لما استطاعوا لذلك، ولو أعان بعضهم بعضًا واتفقوا كلهم على هذا التحدي لعادوا مغلوبين.

﴿٨٩﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

ولقد نوَّع الله - سبحانه وتعالى - في كتابه من سائر الأمثال ومختلف العبر والعظات؛ لينتفع الناس بذلك، وليهتدوا بهدي القرآن، فأبى أكثرهم إلا تكذيبًا للحق، وإنكارًا للصدق، وإصرارًا على الباطل.

﴿٩٠﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾

ولما أفحم القرآن الكفار وغلبهم ببيانه وبلاغته، ذهبوا يلتمسون معجزات أخرى، فقالوا: لن نصدقك - أيها الرسول - ونتبع ما جئت به حتى تخرج لنا من بطحاء مكة عينًا جارية نشرب منها!!

﴿٩١﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا﴾

أو ترينا حديقة لك فيها من أنواع الأشجار ومختلف الثمار تجري وسطها الأنهار بغزارة وكثرة.

﴿٩٢﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾

أو تسقط علينا قطعًا كما زعمت، أو تأتي بالله وبملائكته فنراهم بأعيننا ظاهرين أمامنا.

﴿٩٣﴾ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

أو تملك - أيها النبي - بيتًا من الذهب أو تصعد في سلم إلى السماء، ولن نصدقك في صعودك حتى ترجع إلينا ومعك كتاب منشور من الله، مكتوب فيه أنك محمد رسول الله، فقل لهم متعجبًا من هذا الجحود والتعنت والاستكبار والإنكار: سبحان ربي ما أنا إلا عبد من عباد الله أمره بإبلاغ رسالة منه، لا أقدر على الإتيان بالمعجزات، فمهمتي البيان والتبليغ.

﴿٩٤﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾

والذي منع الكفار من الإيمان بالواحد القهار واتباع النبي المختار بعدما جاءهم القرآن والبيان من الرحمن هو قولهم كبرًا وعنادًا: كيف يبعث الله الرسول من جنس الناس ولم يجعله ملكًا من الملائكة؟!

﴿٩٥﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾

قل لهم - أيها النبي -: لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون عليها مطمئنين في سكون وهدوء؛ لأرسل الله إليهم ملكًا من جنسهم؛ ليكون أعلم بأحوالهم، ولكن أهل الأرض بشر، فالمناسب لهم أن يرسل الله بشرًا مثلهم من جنسهم ليستطيعوا مخاطبته وفهم كلامه والاقتداء بأحواله وجعله أسوةً لهم.

﴿٩٦﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾

قل - أيها النبي - للكفار يكفي الله وحده شاهدًا على صدقي وصحة ما جئت به من الرسالة، إنه - سبحانه - خبيرٌ بأحوال العباد، بصيرٌ بأعمالهم، وسيجازيهم على أفعالهم إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًا فشرٌ.

﴿٩٧﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾

والذي يهديه الله - عز وجل - لطاعته واتباع رسوله، فهو المهتدي إلى الحق والطريق المستقيم، ومن يكتب الله عليه الضلال ولا يوفقه للهداية ويخذله ويكله إلى نفسه، فلن يهديه أحدٌ بعد الله، وهؤلاء الضُّلال يجمعهم الله ليوم لا ريب فيه، ويحضرهم إلى المحشر على وجوههم لا يرون ولا يتكلمون ولا يسمعون، ودار خلودهم في نار جهنم لابثين فيها أبدًا، كلما هدأ اشتعالها، وسكن لهيبها، وخمدت نارها زادهم الله نارًا تتقد وتلتهب عليهم.

﴿٩٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

هذا العذاب الشديد لأعداء الله الكفار بسبب تكذيبهم للرسالة وخروجهم عن طاعة الله وقولهم -مستكبرين معاندين- إذا حُدثوا عن البعث والنشور: كيف نخلق خلقًا جديدًا ونعود ثانية إلى الحياة بعدما صرنا عظامًا بالية، وأجزاءً متفتتة، وأكل أبداننا الدود والتراب.

﴿٩٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾

كيف أعرض هؤلاء الكفار فلم يتفكروا في قدرة الله الذي خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات العجيبة على غير مثال سابق، أليس هو - سبحانه - قادرًا على أن يخلق أمثالهم بعد فنائهم، وقد وقَّت الله لهؤلاء الكفار أجلاً معلومًا ووقتًا معدودًا لموتهم وعذابهم سوف يقع لا محالة، ومع ظهور البراهين ووضوح الأدلة أبى الكفار إلا الجحود والاستكبار والتكذيب والإنكار.

﴿١٠٠﴾ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾

قل -أيها النبي- لهؤلاء الكفار لو كانت خزائن الله من الرحمة والعطاء التي لا نهاية لها ولا نفاد بأيديكم تملكون التصرف فيها لبخلتم بها ولمنعتم غيركم منها؛ شحًا بالعطاء وخوفًا أن تصبحوا فقراء، ومن طبيعة الإنسان الشح والإمساك إلا من وفَّقه الله بالإيمان للعطاء والسخاء.

﴿١٠١﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾

ولقد أعطى الله موسى تسع معجزات واضحات شاهدات على صدق رسالته، وصحة ما جاء به، وهي العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، فاسأل - أيها الرسول - اليهود عن هذه المعجزات التي جاء بها موسى سؤال تقرير، حينها قال فرعون لموسى: إني أعتقد أنك يا موسى قد خُدعت بالسحر، وغُلبت على عقلك بأفعال السحرة، فلست رسولاً وإنما أنت ساحر.

﴿١٠٢﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ۖ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾

فردَّ موسى على فرعون بقوله: أنت تعلم أن الله وحده هو الذي أنزل هذه المعجزات الدالة على صدق نبوتي وصحتها؛ لتكون براهين لمن عنده بصيرة يستدل بها على وحدانية الله وربوبيته وألوهيته، وإني متيقن أنك - يا فرعون - مغلوب هالكٌ مدحورٌ ملعون مخذول.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾

فعزم فرعون على إخافة موسى ومن معه وإخراجه مع قومه من مصر، فأغرق الله فرعون وجنده في البحر، وأنجى موسى ومن معه، وظهر الحق وزهق الباطل.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾

وأوحى الله من بعد هلاك فرعون وجنده إلى بني إسرائيل أن اسكنوا أرض الشام، وكلوا من الطيبات مع عمل الصالحات، فإذا حان موعد القيامة جمعكم الله من قبوركم للبعث والنشور؛ ليوفي كل نفسٍ ما كسبت.

﴿١٠٥﴾ ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

وبالحق أنزل الله هذا الكتاب على رسوله ﷺ لهداية الناس وتعليمهم ما ينفعهم، وتحذيرهم من سبل الشيطان ووسائل الغواية، وبالصدق والعدل وحفظ الله لكتابه من التغيير والتبديل نزل، وما أرسل الله رسوله ﷺ إلا مبشرًا بالجنة لمن أطاعه، ومخوفًا بالنار لمن عصاه.

﴿١٠٦﴾ ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾

وأنزل الله كتابه على رسوله ﷺ مبيِّنًا مفصِّلاً محكمًا فارقًا بين الحق والباطل والهدى والضلال، ليقرأه الرسول على أمته على مهل وتؤدة بلا عجلة، ونزل موزَّعًا تبعًا للحوادث والوقائع وما يناسب أحوال الناس.

﴿١٠٧﴾ ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: آمنوا بكتاب الله أو لا تؤمنوا، فإن إيمانكم لا يزيد القرآن كمالاً وتمامًا وفضلاً، فقد تم وكمل، وتكذيبكم للقرآن لا يُلْحِق به نقصًا وبخسًا وعيبًا، فهو بريء منزَّه عن ذلك، إن العلماء الربانيين الذين عرفوا الكتب السماوية المتقدمة كالتوراة والإنجيل إذا قُرئ عليهم القرآن يتأثرون ويخافون ويسجدون على وجوههم؛ تعظيمًا لمنزلته جل في علاه.

﴿١٠٨﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾

ويقول العلماء عند سماع كتاب الله: ننزِّه الله ونقدِّسه عما وصفه به أعداؤه الكفار، فوعده بالثواب لمن أطاعه، والعقاب لمن عصاه واقع لا محالة.

﴿١٠٩﴾ ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾

ويخرُّ هؤلاء العلماء الربانيون عند سماع القرآن على وجوههم ساجدين لله، يبكون من شدة تأثرهم بسماع آيات الله، ويزيدهم سماع القرآن ذلاً لربهم واستكانة وخضوعًا.

﴿١١٠﴾ ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار الذين أنكروا عليك دعاءك لربك بقولك: «يا ألله يا رحمن» ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فإنه ربٌ واحد له أسماء حسنى كثيرة يُدعى بها، ولا تجهر بالتلاوة في الصلاة فيسمعك الكفار، ولا تسرَّ بها فلا يسمعك المصلون معك، وتوسط في القراءة بين الجهر والإسرار.

﴿١١١﴾ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾

وقل - أيها النبي - لله الحمد؛ لأن له الكمال المطلق، والثناء الحسن، وله كل المحامد والمدائح، ولم يكن له ولد - سبحانه -؛ لأنه لم يلد ولم يولد، ولا شريك له في ربوبيته ولا ألوهيته، وليس له ولي من خلقه يدفع عنه ضرًا ويجلب له نصرًا، فهو القوي الغني، وهم الأذلاء له الخاضعون لربوبيته الفقراء لفضله، وعظِّم ربك بأنواع الثناء عليه، وقدِّسه بشتى المحامد وأخلص العبودية له.